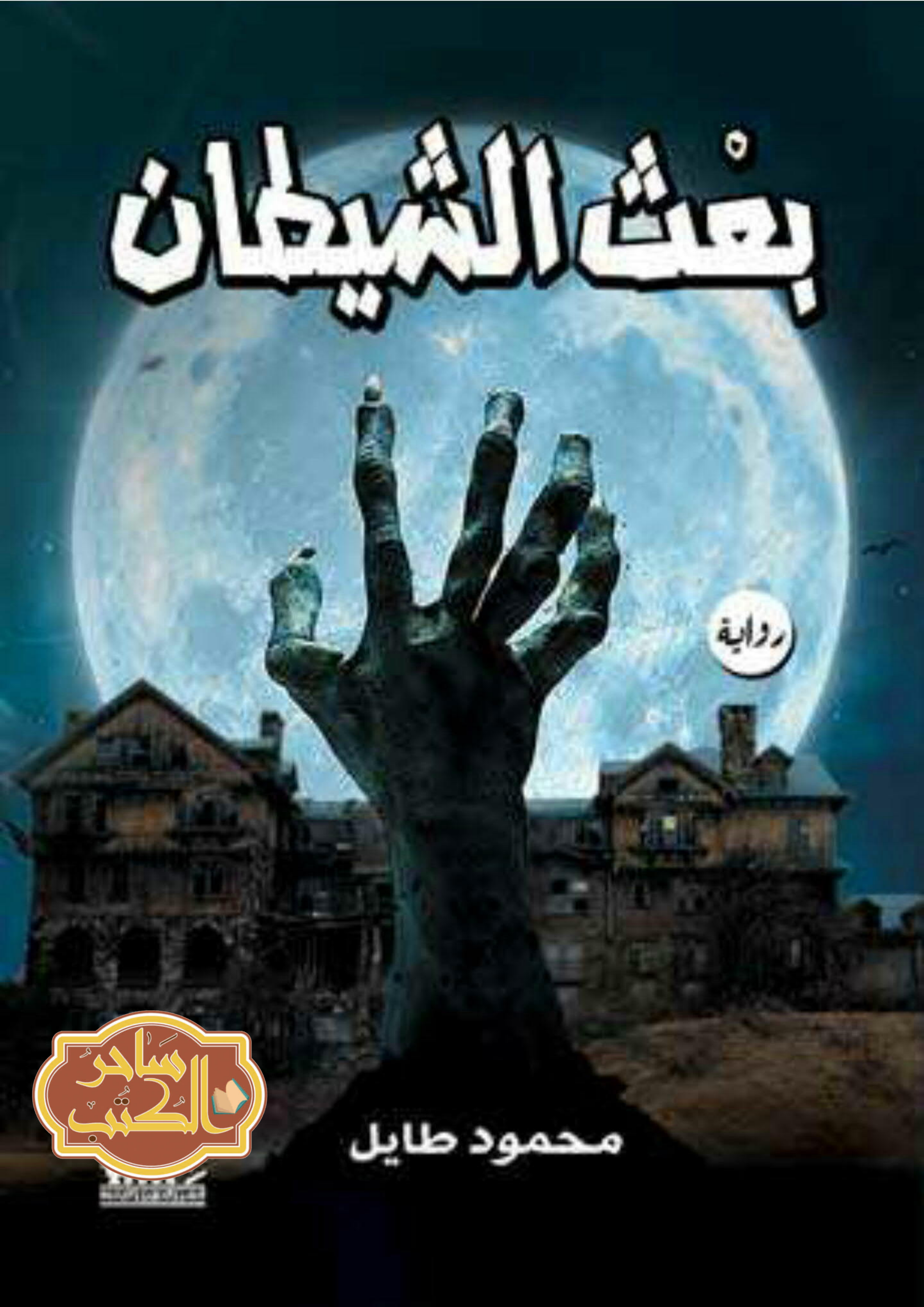

بعث الشيطان
رواية
محمود طايل

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا
sa7eralkutub.com

بعْث الشيطان

محمود طايل

الإهداء

إلى بسمة الأمل ونبض حياتي الذين كان لهم الفضل كل الفضل في أن أبذل قصارى جهدي كي أكون ..

إلى زوجتي وأولادي لكم مني كل محبتي ..

إلى كل مَن وقف بجانبي ولو بشق كلمة ..

إلى كل القائمين على دار إبداع ..

لكم مني جميعًا كل احترام ومودة وتقدير ..

1-عودة المسخ

قال عنها نبي الله يوسف في كتاب الله الكريم اجعلني على خزائن الأرض، فما لنا نرى خزائن الأرض قد نضبت، وصرخ أهلها من الفقر والذل والهوان، وكأن بيوت مصر عن بكرة أبيها قد قذفت بكل من فيها إلى كل الميادين .. في كل ربوع مصر ترى الناس وقد حفر الظلم خطوطه العريقة في ثنايا وجوههم، يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، داعين إلى الله عز وجل أن يحجب عنهم تلك الغرائز الشرطية القمعية القاسية التي يتعاملون بها معهم ..

فمنذ تلك الميتة البشعة لـ خالد سعيد رحمه الله على يد رجال الشرطة في السادس من يونيو عام 2010 وقلوب المصريون تحترق حزنًا عليه .. تفجير كنيسة القديسين في صباح السبت الأول من يناير عام 2011 .. مقتل سيد بلال في السادس من يناير عام 2011 .. كل هذا أدى إلى زيادة الاحتقان لدى شباب مصر فلم تهدأ المظاهرات منذ ذلك الحين .. لم يهدأ القمع

والاعتقالات .. لكن إعلامنا الشريف يحجب كل شيء عن الناس .. فهو إعلام النظام، وإعلام النظام لخدمة النظام ولا شيء غيره ..

لكن إرادة الله فوق كل شيء .. فقد خرجت جحافل الشعب المصري إلى الشوارع والميادين وأقسموا ألا يعودوا إلى منازلهم، إلا بعد سقوط هذا النظام مهما كان الثمن .. حتى ولو كان هذا الثمن هو حياتهم .. هكذا عاهدوا الله .. وهكذا صمدوا .. وكلما ازداد القمع ازدادوا قوة وعزيمة وإصرارًا .. وانتهى اليوم الأول بسقوط أول شهيد في السويس أمام قسم الأربعين .. وازدادت المظاهرات والاحتجاجات .. وازداد نزيف الدم ..

انظروا معي إلى هذه القلة المندسة .. شعب مصر بأكمله أصبح قلة مندسة .. نظروا معي إلى مشهد لم نره إلا في ثورة يناير..

مسلم وغير مسلم يحمي بعضهم البعض .. علماني أو إسلامي أو ليبرالي يدًا واحدة..

هكذا كانت الروح .. لا فرق بين هذا وذاك .. الهدف واحد .. إسقاط النظام .. روح كم نتوق إليها في مثل هذه الأيام ..

وبتلك الوحدة وهذا الصمود لابد لهذا الظلام الحالك أن ينجلي .. لابد ..

******

أدّى وزير الدفاع التحيّة العسكريّة لرئيس الجمهورية، الذي بدا في ذلك الوقت أكبر مِن سِنّه الذي يخدعُنا به على شاشات التلفاز بكثيرٍ، كما كسا الشحوبُ وجهه المتغضِّن بشدّةٍ، كذلك كان حال زوجته، التي تابعت الوزير بصمتٍ وترقُّبٍ، في نفس اللحظة كان يقف ابن الرئيس تلك الوقفة الأرستقراطيّة المُتغطرِسة، التي جعلت وزير الدفاع ينظر إليه بطرف عينيْه نظرةً خاوية تُخفي وراءها حنقًا جارفًا، أمّا وزير الداخلية فقد بدا كطفلٍ صغيرٍ يترقَّب العقاب مِن أستاذه، شديد التوتر والارتباك على عكس ما كُنّا نعهده عنه، فما عهدنا مِنه إلَّا القسوة والغلظة.. هكذا كان حاله.

أمّا وزير الدفاع فقد بدا ساخطًا حانقًا، لا تعلم إنْ كان السبب هو ما آلتْ إليه البلاد مِن فوضى عارمةٍ، أم لسببٍ آخر لا يعلمه إلا إياه.

وببرودٍ، عقد ابن الرئيس ساعديْه أمام صدره، وقد ارتسمتْ على شفتيه ابتسامةٌ رخيصةٌ، قائلاً:

- ما الحلُّ يا سيادة الوزير؟ ألن يتدخَّل الجيش لحلِّ هذه الأزمة؟

رمقه وزير الدفاع بنظرةٍ جانبيةٍ أخرى، قائلاً بحدّةٍ:

- لم آتِ إلى هنا لأتحدّث إليك.

ثم التفتَ إلى الرئيس، مُردفًا بصرامةٍ:

- لقد جئتُ لمقابلة فخامة الرئيس.

لوّح له ابن الرئيس بيده هاتفًا بحدَّةٍ أشدّ:

- كيف تجرؤ أنْ تتحدَّث إليَّ هكذا؟

نظر إليه وزير الدفاع بصمتٍ، فأشار الرئيس إلى ابنه، قائلاً بتوتُّرٍ:

- انتظر يا بُنيَّ، الأمر لا يتحمل الآن.

ثم التفتَ إلى وزير الدفاع، مغمغمًا:

- أتَرى ما آلت إليه البلاد؟ لابُدّ مِن وقف هذه المهزلة بأيِّ شكلٍ، أنتَ ترى ما حدث في تونس، والموقف في مصر أشدُّ خطورةً مِنها، وإنْ لم يتدخَّل الجيش فورًا فسوف نؤول إلى ما آلت إليه تونس.

انعقد حاجبا وزير الدفاع بشدةٍ حتى كادا يتلامسان، متسائلاً:

- وكيف سيتدخَّل الجيش في حلِّ هذه الأزمة، يا سيادة الرئيس؟

قال الرئيس بعصبيةٍ:

- سيَفُضُّ الميادين بالقوّة، أترى حلاً آخر؟

لوَّح وزير الدفاع بيده قائلاً بانفعالٍ:

- كيف أُعطي أمرًا إلى القوّات المُسلَّحة بضرب الناس في الميادين؟ كلُّ مُجنَّدٍ في القوات المسلحة لديه شقيقه وأبوه وجاره في الشارع، كيف سيطيعون أوامري؟

وجال ببصره فيهم، والجميع يتابعه بترقُّبٍ خاصّةً زوجة الرئيس، التي كانت في هذه اللحظات جياشةَ الفكر فيما سيقول، على حين استطرد هو:

- ثم إنْ رضيتُ أنا فمَن سيرتضي هذا في المجلس العسكري؟

حدَّق به الجميع بارتياعٍ، وهتفت زوجة الرئيس بجزعٍ:

- هل ستتخلّى عن زوجي بعد أنْ جعل منك وزيرًا للد...

قاطعها وزير الدفاع، موجِّهًا كلامه إلى الرئيس:

- سيادة الرئيس، أظنُّ أنني جئتُ للتحدث إلى سيادتك، لم أكنْ أعلم أنني جئت لإجراء محادثةٍ عائليةٍ، تُوجَّه إليَّ فيها الإهانة.

ثم التفت إلى وزير الداخلية، وأشار إليه قائلاً:

- هذه مسئولية وزير الداخلية حتى هذه اللحظة، أمّا الجيش فلن ينزل إلى الشارع إلا للضرورة القصوى.

وأشار بسبابته مردفًا بحزمٍ:

- ولَئِن نزلها، فلن يُطلق رصاصةً واحدةً.

قال وزير الداخلية بارتباكٍ:

- سيادة الوزير، أنت تُشاهد الموقف بنفسك، وتعلم أنَّ الداخلية وحدها لن تتمكن مِن كبْحِ جِماح هذه الحشود، الموقف أصعب مِن أنْ تُسيطر عليه الداخليّة وحدها.

وجعل يلوِّح بيديه بعصبيةٍ، مستطردًا:

- لقد اشتبك المتظاهرون مع الداخلية، وهذا مشهدٌ غريبٌ مِن نوعه لم يحدث في مصر مِن قبلُ، فطوال الوقت كانت الداخلية مصدر الخوف لكلِّ المصريين. لقد اعتقلنا المئات وسقط قتلى، لقد استعنتُ بأكثر مِن عشرة آلافِ جنديٍّ أمنٍ مركزيٍّ، وما يقرب مِن مائتي سيارةٍ مُصفَّحةٍ وخمسين أتوبيس نقلٍ عامٍّ، وأكثر مِن ثلاثة آلاف جنديٍّ مِن قوَّات مكافحة الشغب، واستخدمنا قنابل الغاز وخراطيم المياه والرصاص الحيّ. ولقد باءت كلُّ هذه المحاولات بالفشل، الموقف يزداد تأزُّمًا كلَّ ساعةٍ عن الأخرى، والحلُّ أصبح فوق قدرات جهاز الداخلية.

هتف ابن الرئيس بحنقٍ:

- لن تقف القوات المُسلَّحة مكتوفة الأيدي والدولة تنهار، سوف تتدخَّل رغم أنف أيِّ أحدٍ، هذه أوامر الرئيس.

هزَّ وزير الدفاع منكبيه بلا مبالاةٍ، ثم قال بهدوءٍ يشُوبُه البُرود:

- فليكنْ الأمر بالمستطاع حتى يطاع، ولا أظنُّ أنَّ هذه أوامر الرئيس، فهو يحكم الدولة منذ ثلاثة عقودٍ، وأظنه لن يفعل هذا في يومٍ مِن الأيام، فإنه أعلم منّي ومِن أيٍّ أحدٍ بكيفية التعامل مع هذا الـ...

قاطعه الرئيس بغلظةٍ:

- بل هذه أوامري، يجب أنْ يتدخَّل الجيش على الفور.

انعقد حاجبا وزير الدفاع، وصمت برهةً غمغم بعدها بحسمٍ:

- بل يجب أنْ تنزل أنت إلى مطالب الشعب يا سيادة الرئيس.

لوَّح الرئيس بيده، هاتفًا بعصبيةٍ:

- أنتَ تعلم أنَّ إقالة الحكومة لن تكفيَهم، لو أطعناهم في مطلبٍ واحدٍ سيعلو سقف مطالبهم ولن نستطع بعد ذلك تحقيق مطالبهم.

تمتمتْ زوجة الرئيس بتوتُّرٍ:

- ما الحلُّ إذن؟ أيستقيل مِن منصِبه حتى يرضيهم؟

قال وزير الدفاع بخبثٍ:

- فلنأملْ أنْ يرضيَهم هذا.

اكفهرَّتْ وجوههم، وكأنَّ الحياة قد فارقتها فحاكَتْ وجوه الموتى، على حين أدَّى وزير الدفاع التحية العسكرية للرئيس، مُغمغمًا:

- اسمح لي بالانصراف، سيادة الرئيس.

أشار له بالمغادرة بشحوبٍ، دون أنْ ينبسَّ ببِنْتِ شفةٍ، فاستدار وزير الدفاع ثم انصرف، وما كاد يغلق الباب مِن خلفه حتى زمجر ابن الرئيس:

- كيف يجرؤ على التحدُّث إليكَ هكذا؟ هل اختلَّت موازين الكون إلى هذا الحدّ؟ كيف تتركه يفعل هذا دون محاسبته؟

انهار الرئيس على أقربِ مقعدٍ إليه، فما عادت قدماه قادرتان على حمْلِه، خاصّةً بعد كلمات وزير الدفاع، التي هَوَتْ فوق رأسه كألفِ جبلٍ شاهقٍ، ودفن وجهه بيديه فدَنَتْ مِنه زوجته، وربّتتْ على منكبه ترثيه، على حين فغر وزير الداخلية فاه ولزم الصمت، ولقد خيَّم الوجوم على المكان للحظاتٍ، مرَّتْ عليهم كدهرٍ كاملٍ، حتى رفع الرئيس رأسه، قائلاً بصوتٍ مبحوحٍ:

- يجب أنْ تحجب مواقع التواصل الاجتماعيّ، كُنّا نهزأ بها حتى أوصلتنا لِمَا نحن بصدده الآن، يجب أنْ تعتقل كلَّ مَن ساهم في حشد الناس في الشوارع والميادين.

وانقلبت سحنته على نحوٍ ملحوظٍ، مُتابعًا بشراسةٍ:

- ولا ترحمْ أحدًا، المجتمع الدوليّ بأكمله يتابع ما يحدث في مصر دون غيرها، لذا فليستمرَّ الإعلام بالقيام بدوره الذي نرسمه له، يجب أنْ ينتهي هذا الأمر بأسرعِ وقتٍ مُمكنٍ، فإنْ سقطنا فلن يرحمَنا أحدٌ ولقد رأيتَ هذا بنفسك، المجلس العسكريّ منذ أنْ أعدَدْتُ ابني لرئاسة الجمهورية يتميَّزون غيظًا جراءَ

هذا، فكلُّ واحدٍ منهم يرغب أنْ يكون في مكاني، لذا فقد تخلّوا عني على الرغم مِمّا جعلت لهم مِن عظيمِ الشأن في البلاد .. لقد جعلت منهم أسيادًا فوق الجميع.

صمت برهةً تابع بعدها بشراسةٍ أشدّ:

- فإمّا أنا أو الضياع والفوضى مِن بعدي.

قالها ثم عاد الصمت يفرض نفسه مرةً أخرى..

صمت يحجب بركانًا مِن الغضب..

وأطرق الرئيس هنيهةً، ثم عاد يرفع رأسه بلهفةٍ وأملٍ، هاتفًا:

- ماذا عن سلمان؟

لكنَّ وزير الداخلية لم يُحرْ جوابًا..

أبدًا.

******

رسم الخوف خطوطه على وجه أحد الحُرَّاس الذين يقومون بحراسة بيت سلمان الساحر، وهو الذي شهد ملحمةً رهيبةً ومذبحةً يَشيب لهولها الولدان، والتقط كوبًا مِن الشاي مِن يد صاحبه، أمسكه بكلتا قبضتيْه ليبعث فيهما الدفء، بعد أنْ كادت أطرافه تتجمَّد مِن شدَّة البرودة في مثل هذا الطقس السيئ، وجعل يرشف مِنه بتلذُّذٍ مُصطَنعٍ يُخفي به خوفه الدفين، وهو ينفث بخار الماء مِن فمه، ثم التفت إلى صديقيْه الآخريْن، قائلاً بضيقٍ:

- منزلٌ حدثت فيه ملحمةٌ كهذه وانتهى كلُّ شيءٍ، لماذا نقوم بحراسته، ومِمَّ نحرسه؟

وعاد يرشف الشاي، ثم استطرد قائلاً:

- أقسم لكما أني أخشى مجرد المرور مِن أمام هذا البيت الملعون.

ابتسم أحد الحارسيْن، مغمغمًا:

_ ومَن مِنّا لا يخشى هذا يا خيري؟ إنَّ كلَّ مَن يقوم بحراسة هذا البيت الملعون يخالجه هذا الشعور، لكنْ ما الذي يَسَعُنا فعلُه؟ إنها الأوامر بل ولا أبالغ إنْ قلت: إنَّ كلَّ مَن يقومون بحراسة هذا البيت المشئوم بحاجةٍ إلى مَن يحرسهم، لكنْ على الأقل فنحن في مأمنٍ ها هنا بعيدًا عن التعرُّض للمتظاهرين في الشوارع والميادين، فلقد احتدم الصراع وصار في أَوْجِهِ.. هنا أكثر أمنًا بمراحل.

انعقد حاجبا خيري، هاتفًا:

- أيُّ أمانٍ تقصد يا رجل؟ ألَمْ تسمعْ عن ذلك المسخ الذي قتل رجال الأمن والمتظاهرين وغيرهم؟

أخذ ثالثهم يضحك بسخريةٍ، فحدجه خيري بنظرةٍ حادَّةٍ ساخطةٍ، ثم قال بغضبٍ:

- علامَ تضحك أيها الصنديد؟ إنك أجبن مَن خلق اللّٰه في الكون كلِّه، ولو أنَّ أحدهم أهانك إهانةً لا تغتفر ما جرؤت على مجرَّد النظر الحادّ إليه.

زمجر الحارس، وصرخ في وجه خيري:

- أمسِكْ عليك لسانك يا خيري وانتبه لِما تقول، وإلَّا أهنتُكَ أنا تلك الإهانة التي تتحدَّث عنها، ولنرَ ما الذي يمكنك فعله.

ودارت بينهما مُشادَّةٌ كلاميةٌ سخيفةٌ، ما خلت مِن كلماتٍ قبيحةٍ وألفاظٍ بذيئةٍ، كادا بعدها أنْ يشتبكا، لولا أنْ ألقى صديقهما الآخر كوب الشاي مِن يده وحال بينهما، وهو يقول باسمًا:

- على رِسْلك يا أسعد، انتظر يا خيري، ليس هناك داعٍ لكلِّ لهذا و...

واتَّسعت عيناه عن آخرهما بذعرٍ، وتدلَّى فكُّه السُّفلي بشدةٍ، وهو يحدِّق في شيءٍ ما داخل حديقة المنزل عبر البوابة الحديدية، فأثار الرجفة في أوصال صديقيه، والتفتا بدوريهما إلى حيث ينظر، وهما يتوقَّعان رؤية ذلك المسخ ماثلاً بسيفه، يرمُقُهم بنظراتٍ شرسةٍ ليُطيح بأعناقهم، إلا أنّهما وجدا كلَّ

شيءٍ ساكنًا، فنظرا إليه بدهشةٍ وتوتُّرٍ، وهتف به خيري:

- ماذا هناك يا ناصر؟

ظلَّ ناصر واجمًا بعض الوقت، تمتم بعدها:

- لقد رأيتُ.. رأيت ...

لم يستطع إتمام عبارته، فصاح به خيري مرةً أخرى:

- ماذا رأيت يا ناصر؟

تنهَّد بقوةٍ وهزَّ رأسه مغمغمًا:

- لستُ أدري، لكن ...

بتر عبارته عند هذا الحدّ، وظلَّ ينظر إلى الداخل بصمتٍ، في نفس اللحظة التي وَمَض فيها سنا البرق، فعاد ناصر ينتفض بقوةٍ، فالتفتا بحركةٍ حادةٍ إلى حيث ينظر، وعادا يُيَمِّمان مُحيّاهما شطره، وأسعد يهتف به بعصبيةٍ وتوترٍ:

- ماذا حدث يا ناصر؟ لسنا بحاجةٍ لِما تفعله، فقد بدأتُ أشعر بأنفاس ذلك المسخ تلفح مؤخِّرة عنقي، وكأنه سينقضُّ علينا بين الحين والآخر.

أمسك ناصر بيديهما بقوةٍ، قائلاً:

- هناك شيءٌ ما يتحرَّك داخل حديقة المنزل بسرعة رهيبة.

هَوَت هذه الكلمات على رأسيْهما كالصاعقة، وقد ارتعدت فرائصهما، ثم التفتا إلى الخلف ببطءٍ شديدٍ..

إلى داخل الحديقة الخارجية لبيت سلمان الساحر، لكن ...

لا شيءَ في الداخل!

كلُّ شيءٍ هادئٌ إلا مِن صوت حفيف الأشجار، التي تُداعِبها الرياح، وبعض رذاذ المطر..

وبغتةً!

رأوْا باب البيت يُفتَح بسرعةٍ، ثم يُغلَق بعنفٍ، فتراجع الحُرّاس الثلاثة بذعرٍ، ثم امتدَّت أيديهم إلى مسدساتهم، وانتزعوها مِن أغمادها وتحفَّزوا لإطلاق النار، وازدرد خيري لعابه بصعوبةٍ، مُتمتمًا:

- أليس مِن الأفضل أنْ نتَّصل بالرائد حسام؟

امتقعتْ وجوه ثلاثتهم بشدةٍ، وهتف به ناصر بتوترٍ بلغ الذروة، دون أنْ يلتفت إليه :

- وبمَ سنخبره؟ فلنرَ ماذا يوجد بالداخل، ثم نخبره بنتيجة ما نعثر عليه.

اتّسعت عينا خيري بهلعٍ، وهتف:

- أتنويان ولوج هذا البيت الملعون؟

تحشرجت الكلمات في حلق أسعد، وهو يقول:

- نعم، سَنَلِجُ المنزل وليكنْ ما يكون.

أعاد خيري مسدسه إلى غمده ولوّح بيده، وهو يقول بعصبيةٍ شديدةٍ:

- أيُّ جنونٍ هذا؟ لن يدخله أحدكما، ويكفي ما حدث مِن قبلُ لِمَن سبقونا.

توتَّرت عضلات وجهيهما بشدةٍ، إلا أنّ وَهْمَ الجرأة الزائدة عن حَدِّها بداخليهما، منعهما مِن التراجُع عمّا ينويان فعله، وناصر يقول:

- فلتنتظرْنا أنتَ هنا وسأدخله أنا وأسعد.

عاد خيري يلوِّح بيده، وهو يقول باعتراضٍ:

- فلتفعلا ما يحلو لكما، أما أنا فلنْ أتحرَّك مِن مكاني قيد أنملةٍ.

ثم رفع سبابته في وجهيهما، وهو يستطرد مُحذرًا:

- مهما سمعتُ استغاثاتكما بي؟

هَيمَنَ على الرجليْن شعورٌ عارمٌ بالخوف، وكم تمنّى كلاهما في قرارة نفسه العدول عن دخول المنزل، إلا أنَّ هذا التمني، حفر بداخليهما قبرًا ودفن نفسه فيه قبيل أنْ يتحقق، إذ نظرا إلى بعضهما بعضًا وفتحا البوابة الحديدية، فسارا داخل الحديقة إلى بيت سلمان الساحر وكلاهما يقدِّم ساقًا ويجرُّ الأخرى حتى وصلا إلى باب المنزل، وقلباهما يكادان يتوقفان عن النبض مِن شدة الخوف.

ما تلك الحماقة التي اقترفاها؟

تردَّدت تلك العبارة في أعماقهما معًا، وكم صار أقصى أمانيهما أنْ يعودا أدراجهما، يستكملان تناول الشاي، بل وتقبيل رأس صديقهما لئلا يسخر منهما.

ودوَّى قصف الرعد بقوةٍ، فانتفضا بعنفٍ، وتراجعا إلى الخلف قليلاً، ثم اختلسا النظر إلى خيري، وهو الذي كان ينظر إليهما بتوترٍ شديدٍ، ولولا خوفهما مِن سخريته منهما، لهرولا إلى الخارج وجلسا إلى جواره، لذا فقد واصلا تقدمهما.

فضَّلا دخول ذلك الجحيم عن سخرية خيري منهما..

فضَّلا الموت عن مواجهتهما لـخيري، وحَفْلِهِ الساخر الذي سيقيمه عليهما، لو عادا أدراجهما.

نعم..

الموت نفسه..

الموت وبلا رحمةٍ.

وأخرج ناصر المفتاح من جيبه، وفتح الباب ببطءٍ ورعبٍ يفوق إمكان الوصف، على عكس ما كان يدَّعيه من جرأةٍ منذ قليلٍ، وأشار لـأسعد بالدخول أولاً، وهو يحاول رسم ابتسامةٍ مُداعِبةٍ تُخفي خوفه، إلا أنّ الكلمات خرجت مِن حلقه مُرتجِفةً على الرغم منه، وهو يقول:

- أنتَ أولاً، أنت الـ...

قاطعه أسعد قائلاً:

- سندَخل سويًا، ولا داعٍ لإظهار جُبنِنا أمام خيري، وإلا أقام علينا حفلاً ساخرًا.

جعلته هذه الكلمات يبدأ بالدخول، على الرغم مِن تمنِّيه مُغادرَة المنطقة بأكملها التي يقبع فيها هذا البيت الملعون، وبأصابعَ مُرتجفةٍ امتدَّت يده تتحسَّس الحائط للبحث عن زرِّ الإنارة، وأضاء الردهة بالفعل، ومِن خلفه دلف أسعد، وكلاهما يُشهِران مسدسيْهما تحفُّزًا لإطلاق النار، ولكنّ..

هناك شيئًا ما يتحرَّك في المطبخ..

إنَّهما يسمعان صوته على الرغم مِن خُفوته ..

وببطءٍ ورعبٍ اتَّجها إليه، وعلى ضوء الردهة الذي يتسلل إلى المطبخ، تمكنَّا مِن رؤية زرِّ الإنارة فيه وإضاءته، ثم دخلاه، والدماء تكاد تتجمَّد في عروقهما مِن شدة الخوف والرعب اللذيْن يعصفان بكينونتهما.

وفي آليةٍ لا تخلو مِن ذهولٍ، نظرا إلى خيطٍ مِن الدخان يتَّجه نحو مكانٍ ما في أحد جدران المطبخ،

كأنما يلفت انتباههما لهذا الشيء.

زرٌّ صغيرٌ اختفى بداخله هذا الخيط الرفيع مِن الدخان، وهما ينظران إليه بشرودٍ عجيبٍ للغاية، وبدلاً مِن أنْ يعودا أدراجهما، اتَّجها إليه بآليةٍ، وامتدَّت أصابع أسعد تتحسَّسه برفقٍ، وما كاد يفعل حتى اهتزَّ كيانهما كله..

لقد انشقَّ الجدار أمامهما نصفيْن كاشفًا عن سلالمَ تمتدُّ إلى أسفل.

كشف عن القبو الذي كانت تعيش فيه سامية برفقة ابنها المسخ، وشيءٌ آخر غامضٌ، مخيفٌ..

مخيفٌ إلى أقصى حدٍّ.

وفي الخارج كاد خيري يلتهم أظافره مِن شدَّة عصبيته، بل لقد كاد يلتهم أصابعه نفسها التهامًا مِن شدة التوتر، و..

وانطلقتْ صرختان رهيبتان..

صرختان لـأسعد وناصر ..

صرختان لضحيتيْن جديدتيْن في هذا البيت الملعون..

بيت سلمان الساحر.

******

أخذت حسناء تمشّط شعرها أمام المرآة، وهي شاردة الذهن، واجمةٌ، تسترجع ذكرى تلك الأحداث الرهيبة المؤلمة في بيت سلمان، وما تعرَّضت له مِن أهوالَ مع هذا المسخ، الذي أزهق أرواح الكثيرين بلا رحمةٍ.

كانت الأفكار في ذهنها مضطربةً كأمواج البحر في يومٍ عاصفٍ، تجمع بين ماضيها الذي ما عادت تذكرُ مِنه شيئًا إلا أشتاتًا مِن ذكرياتٍ مبهمةٍ، لا تمكِّنها مِن إماطة الخفاء عن شخصيتها التي تتوق لمعرفة كلِّ ما استغلق عليها مِن خفايا.. أفكارٌ غير مرتَّبةٍ تحاول جاهدة أنْ تجني منها أيَّ شيءٍ قد يُعينُها في استعادة ذاكرتها المفقودة، لكنها تخرج مِن كلِّ هذا خاوية الوفاض منكسرةً، كأنَّ ماضيها هاجر عقلها بلا رجعةٍ.

إحساسٌ رهيبٌ ذلك الذي يكتنف الإنسان حين يجهل نفسه..

إحساسٌ يعجز عن وصفه أيُّ إنسانٍ حتى ولو كان في مثل هذه الظروف..

كلُّ ما تعلمه عن نفسها هو أنَّ والدها هو اللواء المتقاعد أحمد الشيمي، وأنها تعمل لحساب جهةٍ أمنيةٍ مصريةٍ، حيث إنها تمتلك قدراتٍ خاصةً تتميز بها عن غيرها، فلم تفشلْ في مهمةٍ واحدةٍ أرادوها منها، فدائمًا ما كان النجاح حليفها في كلِّ المهامّ المسندة إليها، وزفرت بكلِّ ما حاك في صدرها مِن ضيقٍ وقنوطٍ، وشعرت بغصةٍ مِن الألم في حلقها، فازدردت لعابها بصعوبةٍ، مغمغمةً:

- كم أخشى أنْ يكون كلُّ ما يجول في خاطري حقًا..
كم أخشى أنْ تكون أنتَ يا سيادة اللواء...

عادتْ تشعر بتلك الغصّة في حلْقِها، فبترت عبارتها عند هذا الحدّ، وترقرقت مقلتاها بالدموع، ثم رفعت رأسها

إلى أعلى، قائلةً بحزنٍ عارمٍ:

- رحماك يا رب.. رحماك بحالي.

ثم عجزت عن كبح جماح دموعها، التي انحدرت على خديْها تلاحق بعضها بعضًا، فأخذت تكفكف العبرات المُنحدرة، ثم عادت لتمشِّط شعرها مرةً أخرى، لكنْ هيهات! ألقتْ بالفرشاة أرضًا، وشرعتْ تُخاطِب نفسها في المرآة كأنَّما فقدتْ عقلها، قائلةً بغضبٍ:

- كيف يكون الشخص الوحيد الذي...

بترت عبارتها مرةً أخرى واستندت إلى الحوض بيديها، فخفضت رأسها وعادت تلك الدموع الرابضة في مقلتيها كربوض الصياد بفريسته تتساقط مرةً ثانيةً، ثم رفعتْ رأسها تتشخص بالمرآة فإذا بها يُخيَّل إليها أنَّ صورتها في المرآة تُجيبها، قائلةً:

- لا تتشكَّكي في كلِّ شيءٍ مِن حولك.

صرخث حسناء بمرارةٍ:

- كيف؟ كيف؟ أليس مِن المحتمل أنْ تكون هذه هي الحقيقة؟

ومرةً أخرى، خُيِّل إليها أنَّ صورتها في المرآة تُجيبها:

- لم تستردِّي ذاكرتك بالفعل إلى الآن، فلا تحكُمي على كلِّ شيءٍ بالهوى وحسب.

وأطلقت شهقةً عاليةً، والتفتَتْ إلى الخلف بحركةٍ حادةٍ عنيفةٍ بعد أنْ زالت صورتها من المرآة، وحلَّ محلَّها ذلك الشيء الرهيب.

زالتْ صورتها وحلَّ مكانها ذلك المسخ، الذي قَضَتْ عليه مِن قبل في بيت سلمان..

رأته بحقٍّ، ولكن حين التفتَتْ إلى الخلف لم تَجِدْه..

لم تجدْ له أدنى أثرٍ..

لكنها رأته في المرآة، وهو ينظر إليها بشراسةٍ وغضبٍ يفوقان إمكان الوصف، فعادت مرةً أخرى تلتفت إلى

المرآة، ثم جعلت تفرك عينيْها بقوةٍ وأخذت تحدِّق بالمرآة ذاهلةً، لكنها وجدت صورتها بدلاً مِن المسخ، لكنَّ شعورًا جارفًا بالخوف هيْمَن عليها، ولقد جعلها هذا تظلُّ شاخصةً في المرآة من غير كلالٍ، ثم تهزُّ رأسها كأنما تنفض صورته من مخيلتها، لكنْ سرعان ما اكتنفها دوارٌ شديدٌ فمادت بها الأرض مع شعورٍ مُلِحٍّ منها بالقيء، فهرولت إلى المرحاض، وارتدَّت إلى الخلف كالملسوعةِ حين رأت صورة المسخ فيه..

رأته ينظر إليها نفس النظرات الغاضبة المَقيتة، فتوقَّفت على بُعدِ خطواتٍ مِن المرحاض، ثم عادت تدنو ببطءٍ وخوفٍ شديديْن، وأرسلتْ بصرها فيه، لكنها في هذه المرة وجدته، فحاولت أنْ تفرَّ هاربة لكنها عجزت..

عجزتْ حين امتدَّتْ يداه البشعتين إليها، وجذبها مِن شَعْرِها.

حاولت باستماتةٍ وبكلِّ ما تملك مِن قوةٍ التخلُّص مِن تلك القبضة الرهيبة، إلا أنّها فشلت..

تلك القبضتان كانتا أقوى مِمّا تخيَّلت.

وبكلِّ قوَّته جذبها إلى الداخل..

جذبها إلى المرحاض..

ظنَّتْ نفسها سترتطم به بعنفٍ، لكنَّها مرَّقتْ مِن خلاله كأنما لا وجودَ له، فوجدتْ حسناء نفسها في لا شيءَ..

كلُّ شيءٍ مِن حولها عَدَمٌ..

فقط العَدَم وذلك المسخ وهي..

دنا المسخ مِن وجهها حتى شعرت بأنفاسه الحارّة ورائحته النتنة كما الجيفة، وهو يشُمُّها كأنه يتطيَّب مِن عطرها، ثم يقول بصوتٍ عميقٍ:

- تظنين أنني في تعداد الموتى؟

تألَّمت بشدةٍ، وعادتْ تُحاول أنْ تفلِت مِن قبضته، فأخذ يحملق فيها بعينيْه الطوليتيْن، ثم دفعها بقسوةٍ أمامه، وهو يقول بغضبٍ:

- بنو جنسي لا يُقهَرون.

وضمَّ قبضته ذات المخالب الطويلة، وهو يستطرد بصوتٍ مخيفٍ:

- بل أنتِ التي ستُقهَرين، سأجعلك صاغرةً، ذليلةً، أنتِ...

وأشار إلى جوارها وهو يتابع:

- وهذا الكلب.

وبغتةً، رأتْ والدها إلى جوارها صامتًا واجمًا زائغَ البصر لا ينطق بشَطْرِ كلمةٍ، فدنا مِنهما المسخ، على حين أخذت هي تصرخ:

- أنت مجرَّد وهمٍ، لقد قضيتُ عليك بالفعل، وجثَّتك يقومون بفحصها.

ابتسم أو خُيِّل إليها أنه يبتسم، وهو يقول بهدوءٍ شرسٍ:

- وهل هذا أيضًا وهمٌ؟

ثم هَوَتْ قبضته كالقنبلة على أنفها، الذي أخذ يشخب دمًا بغزارةٍ، فصرخت بألمٍ وأمسكتْ به في محاوَلَةٍ منها لمنع نافورة الدماء التي انبثقت منه، على حين نظر المسخ إلى والدها، الذي رفع رأسه ببطءٍ نحوه، وأوحتْ ملامحه بالضراعة دون أنْ ينبسَّ ببنت شفةٍ، لكنْ كان مِن الواضح أنَّ هذا المسخ لم يكنْ ليرحمه فرفع قبضته إلى أعلى و...

- حسناء!!

هتف بها والدها الذي كان يحمل بيده طفلاً رضيعًا، يقف به أمام باب الحمام، الذي كان مفتوحًا على مصراعيه، فانتفضت حسناء بقوةٍ وشرعت تتلفَّت حولها بانزعاجٍ، لتجد نفسها تقف أمام المرآة لم تبعد عنها قيد أنملة ..

لا وجود لهذا المسخ..

لا وجود للعدم الذي جذبها إليه..

ونظر والدها إلى الرضيع الذي يحمله على يديه، قائلاً بمرحٍ:

- انظري ماذا وجدت؟

ورفع رأسه ينظر إلى حسناء، وما كاد يفعل حتى اتَّسعت عيناه عن آخرهما بذعرٍ، وهو يهتف:

- ما هذه الدماء التي تنزف مِن أنفك؟

وضعتْ يدها على أنفها بسرعةٍ، تتحسَّس الدماء الدافئة اللزجة الدافئة التي تسيل منها بالفعل، ثم أطلقت شهقةً عاليةً، واتَّسعت عيناها بذهولٍ وانزعاجٍ شديدين حينما نظرت إلى والدها..

فقد كان أنفه أيضًا ينزف دمًا على وجه الطفل الذي يحمله في يده..

ينزف ببطءٍ..

وبغتةً.. تعالت صوت طرقاتٍ عنيفةٍ على باب المنزل، فانتفضا دفعة واحدة وهرولا نحو الباب بتوتُّرٍ، لكنَّ رتاج الباب تحطَّمَ بقوةٍ، حين دفعه شخص قويٌّ البنيان غليظ الملامح، ذو شاربٍ ضخمٍ يميِّز تابعي رجال الشرطة، واقتحم رجال الأمن المنزل للقبض على اللواء أحمد الشيمي وابنته حسناء بأوامرَ مباشرةً مِن وزير الداخلية، فالتصقا بأحد الجدران ينتظران هجوم قوات الأمن عليهما، لكنَّ هذا لم يحدث..

لقد هتف قائد قوات الأمن في رجاله بغلظةٍ وبلهجةٍ آمرةٍ:

- ابحثا عنهما في كلِّ مكانٍ، أريدهما أمامي مكبليْن بالأغلال.

وانتشر رجال الأمن في الشقة بأكملها يبحثون عن حسناء ووالدها كأنّهم لا يرونهما..

أو أنهم هكذا بالفعل..

وما هي إلا لحظاتٌ حتى اجتمع كلُّ رجال الأمن في ردهة المنزل، وهم يهتفون جميعًا بصوتٍ واحدٍ:

- لا أثر لأحدهما في الشقة.

وزَفَرَ قائدهم بقوةٍ، ثم زمجر قائلاً:

- أين ذَهَبا إذن؟

ولوَّح لهم بيده هاتفًا:

- هيا بنا، سنعود إليهما في وقتٍ لاحقٍ.

وانصرف رجال الأمن دون أنْ يلتفت أحدهم إليهما، ولا للطفل الذي يحمله اللواء أحمد على يديه..

كلُّ هذا حدث وهما يتابعانه دون أنْ يتفوَّه أحدهما بحرفٍ واحدٍ..

حتى الطفل نفسه لو رأيتَ نظراته لخُيِّل إليك أنه يتساءل مثلهما:

- كيف حدث هذا؟

******

- أنا لا أخاف، وكفاكما مزاحًا فسوف أتحدث إلى الرائد حسام وأخبره بكلِّ شيءٍ.

نطق بها خيري وهو يرتجف مِن شدّة الخوف، عندما سمع صراخ صديقيه، عندئذ ترك أظافره التي كاد يلتهمها التهامًا بسبب ذلك التوتر الذي سيطر عليه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ونهض من فوق مقعده، ثم اتَّجه ببطءٍ نحو باب المنزل، يقدِّم ساقًا ويجرُّ الأخرى جرًا، حتى أمكنه الوصول إليه بعد وقتٍ طويلٍ، بدا له كدهرٍ كاملٍ، بل واستغرق وقتًا أطول مِنه حتى يخطو خطوةً واحدةً داخل البيت، وما كادت قدماه تخطوها حتى استلَّ مسدسه مِن غمده فجأة وبلهفة، بعد أنْ كان قد نسي أمره تمامًا، وازدرد لعابه بصعوبةٍ، أو خُيِّل إليه أنه قد فعل هذا، إذ إنَّ حَلْقه كان شديد الجفاف كصحراءَ قاحلةٍ، ثم خرج صوته مختنقًا خفيضًا يكاد يكون همسًا وهو يقول:

- لا داعٍ لتلك السخافة.

جاوبه صمتٌ تامٌّ رهيبٌ، جعل خوفه يبلغ الذروة، فقال بصوتٍ أبحٍّ:

- أعتقد أنكما قد سخرتما مني بما يكفي، وينبغي أنْ نكون في الخارج الآن، فأنتما تعلمان أن التعليمات لا تقتضي وجودنا بالداخل.

مرةً أخرى جاوبه الصمت..

صمتٌ تامٌّ، مطبقٌ، مخيفٌ.

وبتردُّدٍ وبخطواتٍ ثقيلةٍ مُرتعِدةٍ اتَّجه إلى المطبخ، ولولا أن صاحبيه أضاآه ما جرؤ على دخوله، وحين فعل وجد رفيقيه يقفان بالداخل يوليانه ظهريهما دون حراكٍ يُمسك كلٌّ منهما بمسدسه، ويضع يده إلى جواره وما كاد يراهما حتى تهللت أساريره، لكنه صرخ بهما بغضبٍ واستنكارٍ:

- ألمْ أقلْ لكما إنكما وغدان؟

لم يُجِبْه أحدهما وظلّا صامتيْن ثابتيْن، لم يحرِّك أحدهما ساكنًا..

ظلَّا ثابتين كتمثالين من الرخام..

ومرةً أخرى عاد الخوف يُهيْمن عليه – بل غزاه غزوًا_ إلا أنّه تمالك جأشه وتظاهر بالشجاعة وهو يهتف:

- كفاكما سخافةً وهيا بنا إلى الخارج.

واستدار ليغادر المكان متوهمًا اتباعهما له، إلا أنّه حين تيبست قدماه والتفت إلى الخلف ينظر إليهما، وجدهما ثابتين بلا حراكٍ، فعاد أدراجه إليهما، وبعنفٍ جذبهما مِن منكبيهما، عندئذٍ كانت المفاجأة..

بل كانت الصدمة..

لقد سقط الرجلان..

سقطا أرضًا!

ونظر خيري إليهما بجزعٍ وهلعٍ شديدين، ثم تراجع إلى الخلف مذعورًا، وهو يصرخ برعبٍ:

- يا إلهي! يا إلهي.

فقد كان ما يراه رهيبًا..

رهيبًا إلى أقصى حدٍّ..

لقد خَوَتْ عيناهما من الحياة، وتشوّه وجهاهما مِن أثر النيران..

حقًا عيونهما خاويةٌ مِن الحياة لكنَّهما مليئتان بالأسرار والغموض والرعب..

كلِّ الرعب..

وخرَّ خيري أرضًا، فأخذ يزحف بسرعةٍ، لاهثًا مِن فرط الانفعال، حتى وصل إلى خارج المطبخ بعد مجهودٍ خارقٍ، وعلى الرغم من أنّ هذا لم يستغرق سوى ثوانٍ معدوداتٍ، إلا أنه خُيّل إليه أنه قد استغرق نصف عمره

لمغادرته، وما كاد يفعل حتى نهض من سقطته مطلقًا لساقيه العنان، وإحساس هائل شمله بأنّ نهاية أجله قاب قوسين أو أدنى، وفي عجالةٍ أخرج هاتفه الخلويّ مِن جيبه، وبأصابعَ مرتجفةٍ جعل يبحث في سجلِّ الأسماء عمّن يرغب الاتصال به، إلا أنّ أصابعه تجمّدت في مكانها، ونظر إلى داخل حديقة المنزل ببطءٍ كأنما يخشى النظر إلى هناك..

فهناك شيءٌ ما يتحرك بسرعةٍ رهيبةٍ داخل الحديقة ..

وحينما لم يجدْ شيئًا، أخذ يُجري اتصاله مرةً أخرى وجسده بأكمله ينتفض، ولمّا أجابه الشخص الذي يتصل به، عاد هو يشعر بذلك الغامض يتحرك داخل الحديقة، فشحذ كلَّ حواسِّه له، ورغمًا عن أنفه تجاهل الرائد حسام الذي كان معه على الجانب الآخر من الهاتف، ولقد كان صوت هذا الأخير واضحًا وهو يهتف بجزعٍ:

- ماذا هناك يا خيري؟ خيري؟

ولم يُجِبْه خيري..

فقط كان ينظر إلى الداخل برعبٍ..

رعبٍ يفوق إمكان الوصف..

وظلَّ الرائد حسام يصرخ من الجانب الآخر، وظلَّ خيري ينظر إلى الداخل، دون أنْ يطرف له جفنٌ.

وبغتةً، وبلا مقدماتٍ ..

ظهر ذلك الشيء الذي كان يتحرك في الداخل ..

ظهر فجأةً، وفي لمح البصر، وجده ماثلاً أمامه مباشرةً، وأطلق خيري شهقةَ رعبٍ هائلةٍ، حين وقع سنا البرق على وجهه ..

وارتجفت كلُّ خلجةٍ مِن خلجات خيري حين رآه، وشعر بقدميْه ما عادتا تقدران على حمله، ثم دوّى هزيم الرعد مدويًا، في نفس اللحظة التي انقضَّ فيها هذا الشيء عليه بسرعةٍ رهيبةٍ..

بل بسرعة البرق نفسه.

ومِن الجانب الآخر، سمع الرائد حسام صوت صرخةٍ هائلةٍ ارتعدت لها فرائصه..

صرخة خيري ..

رحمه اللّه!

******

2 – الميدان

حمل ذلك الرجل نحيفَ الوجه والجسد، والذي يغطّي الشيب جُلَّ شَعْرِه، ابنه الصغير فوق منكبه في قلب ميدان التحرير، وهو يهتف تارةً مرحًا مع الهاتفين بسقوط النظام، وتارةً يُلقي به إلى أعلى ثم يلتقطه مداعبًا إياه بفرحةٍ غامرةٍ، وتارةً أخرى يجوب ببصره في الميدان فلا يرى إلا رؤوس البشر بشتى ألوانها، فما يكون علي لسانه حين يرى هذا المشهد إلا أنْ يكبر، ثم يضمّ ابنه إلى صدره بقوةٍ وسعادةٍ غامرتيْن، كأنَّما حِيزت له الدنيا وما فيها، ثم لثم الرجل كفَّ ابنه الرقيق بقُبلةٍ أودعها كلَّ ما يجيش به صدره من حبٍّ وحنانٍ لصغيره، ومِن خلفه كانت حسناء ووالدها يتابعان هذا المشهد بتأثُّرٍ تامٍّ على الرغم مِن انخراطهما الكامل بالتفكير بما حدث في المنزل اليوم من غموضٍ..

لكنَّ الطفل كان ينطق بكلماتٍ تفطر القلوب وتخطف الآذان رغمًا عنها، حوار الرجل مع ابنه جعلهما يرهفان

السمع إليهما بشغفٍ.. وبفَرَحٍ قال الطفل لأبيه:

- أنا أرى الجنة يا أبي، أهذه مصر؟

طبع الرجل قُبْلَةً حانيةً على خدِّ ابنه، مغمغمًا:

- نعم يا حبيبي، مصر هي جنة الله في الأرض.

تهلَّلت أسارير الطفل وألهب يديْه الصغيرتين بالتصفيق مُهلِّلاً:

- إذن، فأنا سأسبقكم إليها.

وارتمى الطفل بأحضان والده، وقد تحوَّلت لهجته إلى الجدِّية، مِن العجيب أنْ تكون هكذا لِمَن هو في مثل سِنّه، قائلاً كأنّما يتضرّع:

- ضمَّني بقوةٍ يا أبي.

أحاطه الرجل بذراعيه فاحتواه بهما، قائلاً بتوترٍ حين شعر بتلك اللهجة الغريبة في كلمات ابنه:

- لا تقلق يا حبيبي، لن يمسَسْك سوءٌ وأنتَ في أحضاني.

انعقد حاجبا حسناء بدهشةٍ، على حين أمسك والدها بكفِّها فدَنَتْ برأسها منه، فهمس هو في أُذُنِها:

- هذا الطفل يتحدَّث منذ نصف ساعةٍ بكلماتٍ مؤثِّرةٍ، مِن العجيب أنْ يتفوَّه بها مَن هو في مثل سِنّه.

أومأت له برأسها، مغمغمةً:

- انتبهْ منذ البداية لحوارهما، فتارةً يتحدَّث بمرح طفل لا يحمل للدنيا همًا وتارةً أخرى بحزن رجل ذاق مرارة الحياة .

عادا يتابعان حوارهما، والطفل يقول لأبيه:

- أنا لن أذهب إلى المنزل مرةً أخرى.

انعقد حاجبا والده هذه المرة بتعجُّبٍ، ثم أجفل هاتفًا:

- ماذا بك يا بنيّ في هذا اليوم، كلماتك تثير دهشتي.

ابتسم الطفل ابتسامةً شاحبةً، ثم تمتم:

- اطمئنْ يا أبي، لن أُثير دهشتك أو غضبك أو حتى فرحك بعد اليوم.

وبحركةٍ لا إراديةٍ رفعت حسناء عينيْها إلى مجمع التحرير، وما كادتْ تفعل حتى أطلقتْ شهقةً عاليةً، وأمسكت بيد والدها بتوترٍ، هامسةً:

- إنه هنا يا أبي.

التفت إليها بارتباكٍ واضحٍ، متمتمًا:

- مَن هو؟

أجابت بصوتٍ أبحٍّ:

- المسخ.

هنا كأنَّ صاعقةً هَوَتْ عليه مِن السماء، فجعل يتلفَّت حوله كالملسوع مُرددًا بذعرٍ:

- أين يا حسناء؟ أين؟

أشارتْ بأصابعها الرقيقة المرتعشة إلى مبنى مجمع التحرير، قائلةً بخفوتٍ:

- ها هو ذا.

أرسل بصره إلى المبنى وجعل يتفحصه من أعلى إلى أسفل، ثم قلب كفيه، قائلاً بحَيْرةٍ جارفةٍ:

- ليس هناك أيُّ شيءٍ.

ظلَّت تشخص إلى المبنى بتوترٍ بالغٍ، ثم أخذت تهزُّ رأسها بحيرةٍ، فالمسخ غير موجودٍ بالفعل، لكنها تثق ثقةً لا حدود لها أنّها رأته حقًا، ماثلاً فوق المبنى يصوِّب إليها إحدى بنادق القنص.

رأته يصوِّبها إليها وهو يبتسم بسخريةٍ..

تَعلَم علم اليقين أنه قد عاد، أو أنها لم تقتله بالفعل.

ظلَّ والدها يتفحّصها بصمتٍ دونما تعليقٍ، على حين طفقت هي تهزُّ رأسها، كأنما تحاول عبثًا أنْ تزيح عنها صورة المسخ، التي ما عادت تفارق مخيلتها، ولقد أعانها في هذا ذلك الطفل، الذي كان يقول لأبيه في هذا الوقت:

- الآن يا أبي .. وداعًا يا أبي.

ودون مقدماتٍ اخترقت رصاصةٌ رأس الطفل، واستقرت بها، لتكتب بذلك نهايته، فتفجّرت منها الدماء التي لوثت وجه أبيه وملابسه، ولقد كان لحسناء وأبيها نصيبٌ مِن تلك الدماء العَبِقة، فسادت حالةٌ مِن الذعر والهرج والمرج بين صفوف المتظاهرين ما لبثت أنْ انتهت، ولقد جثا الرجل على ركبتيه وضمَّ ابنه إلى صدره، وهو يهزُّ رأسه بلوعةٍ وحزنٍ، فاقدًا السيطرة على نفسه، في مشهدٍ هو الأقرب إلى مشهد محمد الدرة الذي اغتاله اليهود في فلسطين، لكنْ هذه المرة على يد رجال الأمن المصرية، التي قتلت ذلك الطفل المصريّ المسكين بدمٍ باردٍ، ما هالهم حرقة قلب أبيه عليه، الذي أحاط به المتظاهرون كما السوار

بالمعصم، يرثونه ويبكون حاله، ولقد مكثت حسناء ووالدها إلى جواره، وتلك الدموع المنهمرة تتسابق على الوجوه المتجهمة في سرعةٍ، سرعان ما تُرجمت على الفور إلى هتافاتٍ مُندِّدةٍ للنظام، حتى والد الطفل نفسه كان يهتف من بين دموعه، ورأس ابنه ينزف وينزف معه قلبه الذي ينفطر حزنًا عليه..

الآن فقط أدرك لمَ كان يتحدث إليه ابنه هكذا..

أدرك أن تلك الجنة التي كان يتحدث طفله عنها لم تكن مصر أبدًا، فالجنة لا يقتل أهلها بعضهم البعض..

أدرك أنه كان يشعر بالنهاية..

نهايته.

******

مبارك لكم البراءة أيها الرجال.

قالها أحد ضباط الشرطة وهو يفتح باب الزنزانة للمساجين، الذين نهضوا من مجلسهم يحدِّقون به

بذهولٍ مُجمجِمين، دون أنْ يتحرك أحدهم مِن مكانه، فهتف بهم بصرامةٍ:

- هيا، اخرجوا.

وعلى الفور شرعوا ينظرون إلى بعضهم البعض في ذهول والحيرة تتنازعهم، حتى بدأوا بالخروج بتوترٍ ودهشة وعدم فهم حقيقي للموقف الذي هم بصدده يتساءلون عما يعنيه هذا، ولقد اصطفوا صفًا واحدًا وتحركوا ببطءٍ، بين صفَّيْن مِن رجال الأمن جعلوا يضربونهم على مؤخرات أعناقهم وظهورهم بقسوةٍ، هاتفين بهم:

- تحركوا بسرعةٍ.

أخذ المساجين يحمون مؤخرات أعناقهم بأيديهم حذر الضرب عليها، لكنَّ قوة الضرب كانت تهزُّ كيانهم كله، ولقد ظلوا هكذا حتى وصلوا إلى البوابة الخارجية للسجن، فاستوقفهم الجنود بأسلحتهم، ودنا منهم ضابطٌ برتبة عقيدٍ، جعل يجول فيهم ببصره وهم

ينظرون إليه بجزعٍ، حتى بدأ هو في الحديث قائلاً بهدوءٍ ساخرٍ:

- لقد نِلْتم حريتكم، لكنْ هناك ثمنٌ يجب أنْ تدفعوه.

حدَّقوا به في مزيجٍ من الدهشة والترقُّب، وهو يتابع:

- هذا الثمن هو أنْ تعيثوا في مصر فسادًا، كلّ ما تتمنّون عمله وتشتهي أنفسكم مِن موبقاتٍ عليكم القيام به، مِن الآن فصاعدًا أنتم أصحاب هذا البلد حتى تُردَّ إلى أصحابها.. أسمعتم؟

ثم التفت إلى أفراد الأمن وهتف بهم بصرامةٍ:

- افتحوا البوابة.

وعلى الفور قام رجال الأمن بتنفيذ الأوامر، وسادتْ حالةٌ مِن الهرج والمرج بين صفوف المساجين يتسابقون مِن أجل الخروج من البوابة، غير مصدِّقين لِما يحدث يساورهم الشكُّ في أنْ يتراجع العقيد عن قراره، لذا فقد تعثَّر بعضهم فوقع أرضًا، ومَن سقط

فقد اضطرَّ أنْ يتحمَّل وقع أقدامهم ذات الرائحة النتنة فوق وجهه وبطنه بل وسائر جسده، وما هي إلا لحظاتٌ حتى كان كلُّ المساجين في الخارج يتلقَّفون الهواء البارد، وقد بشَّتْ وجوههم وطفِقوا يهتفون بفرحةٍ غامرةٍ، لا يعلمون ما ينتظرهم من مصيرٍ أسودَ خارج السجون، ولقد كان مِن بين هؤلاء رجلٌ بدينٌ بعض الشيء أبيض البشرة، كأنه لم يتعرض لأشعة الشمس قطّ، وقف أمام بوابة السجن لحظاتٍ حتى أقبلت إليه سيارةٌ سوداءُ مُعتمٌ زجاجها فتح سائقها الباب، ثم أسرع نحوه مرتميًا بأحضانه، لكنْ ظلَّت يدا المسجون إلى جواره لم تَبْدُر منه أيٌّ بادرةٍ نحوه، وإنْ أخذ ينظر إليه بضيقٍ، قائلاً باقتضابٍ:

- هيا.

فتح له الرجل الباب وانتقل هو إلى عجلة القيادة، وبعد ساعةٍ تقريبًا توقفت السيارة بعد أنْ تحطَّم زجاجها الأمامي والخلفي، مع تلك الفوضى العارمة التي حلَّت بالبلاد، ولقد أثخنتهما الجِراح التي سالت مِنها الدماء بعد تعرُّضهما للرشق بالحجارة.

حالةٌ مِن الفوضى اجتاحت مصر مِن شرقها إلى غربها بعد فتح كلِّ السجون، وفي عجالةٍ هبط الرجلان مِن السيارة وانتقلا إلى شقةٍ فاخرةٍ في أحد العقارات، وبعد أنْ أتمَّ المسجون الهارب عملية نظافةٍ شاملةٍ لنفسه، انتقل إلى الشرفة التي كان ينتظره فيها الآخر فجلس إلى جواره، ولم ينبسّ أحدهما ببنتِ شفةٍ، ما يقرب من نصف ساعةٍ كاملةً، حتى تنهَّد ذلك الآخر بضجرٍ، مغمغمًا:

- إلى متى ستظل هكذا؟

يمَّم الآخر مُحيّاه شطره ببطءٍ، وقد بَدَت عيناه دامعتان، وهو يقول بحزنٍ شديدٍ:

- إنهما شقيقاي يا قدري.

عاد قدري يتنهّد مرةً أخرى، قائلاً:

- وها قد سنحت لك الفرصة للخروج من مَحبسك دونما ترتيبٍ مُسبقٍ، وليس علينا الآن سوى الترتيب للانتقام من حسناء، وهذا هو أنسب وقتٍ لمثل هذا

الأمر، فالبلاد في حالةٍ من الفوضى المُفرِطة، ولئن قتلت فيها ألف شخصٍ فلن تجد لك رادعًا، فقد انسحبت الشرطة من المشهد تمامًا.

ابتسم الرجل ابتسامةً مريرةً، قائلاً:

- انتقامي منها لن يكون مجرَّد القتل يا قدري.. انتقامي منها هو أنْ أجعلها تتمنى الموت فلا تستطيع.

وتحوَّلت لهجته إلى الشراسة، مُردِفًا:

- أقسم أني سوف أفعل هذا ولو كلفني كلَّ ما أَملِك، ولو حتى روحي نفسها.

انعقد حاجبا قدري بشدةٍ، متسائلاً:

- وكيف ستفعل؟

زفر بضيقٍ ثم عاد يتطلَّع إلى الأفق، كأنّما يستلهم جوابَ السؤال منه، وأجاب دون أنْ يلتفت إلى قدري:

- ستكون أنت وسيلتي للانتقام منها، ستصبح زوجتك.

تدلّى فكّه السفلي كالأبله، وحدَّق به لحظاتٍ بذهولٍ، ثم قلب كفيه متمتمًا:

- مَن زوجة مَن؟

أجاب بهدوءٍ:

- هل شاهدت ذلك الفيلم الشهير face off ؟

ظلَّ يحدِّق به دون أنْ ينطق بكلمةٍ، على حين استطرد الآخر:

- ستصبح رأفت منصور.

ووكزه تحت إبطه مداعبًا وهو يتابع:

- حبيبها يا رجل.. ستصبح زوجًا لفاتنةٍ كهذه لم تكنْ تحلم في يومٍ من الأيام أن تنظر إليك بوسامتك هذه التي تنفر منها أقبح نساء الأرض.

زمجر قدري:

- أظنّ أنه ليس هناك داعٍ للسخرية مني هكذا يا دكتور صفوت.

انفجر الدكتور صفوت ضاحكًا وجعل يضرب كفًا بكفٍّ، مِمّا حدا بـقدري أنْ يزفر بحنقٍ، فقال الأول من بين ضحكه:

- إني أمزح معك يا قدري، أنت تستحق منَ هي أكثر منها فتنةً وجمالاً.

وكطفلٍ صغيرٍ لانت ملامح قدري، فبشَّ وجهه، وقال بسذاجةٍ:

- وهل ستستبدل وجهي بوجهه كما حدث في الفيلم؟

استرخى الدكتور صفوت في مقعده وأغمض عينيه، جاعلاً يديه خلف رأسه، مغمغمًا بهدوءٍ:

- سأفعلها يا رجل.. سأفعلها.

فغر قدري فاه ونظر إليه بتعجُّبٍ دونما تعليقٍ، على حين واصل الآخر حديثه وقد ضمَّ قبضته وتحوَّلت لهجته إلى الشراسة مرةً أخرى، قائلاً:

- دم كامل وعياد، سوف تدفع هذه الحقيرة ثمنه غاليًا.. غاليًا يا قدري.

غمغم الآخر:

- لكنها لم تقتلهما، يقال إنه كائنٌ غامضٌ...

قاطعه بصرامةٍ:

- لكنها مَن تسببت في ذهابهما إلى حيث لقيا حتفهما.

قالها ثم شردا وساد الصمت بينهما.

لكنْ، ومِن خلفهما داخل الشقة..

كان هناك مَن يتابعهما بصمتٍ..

زوجٌ مِن الأعين كانت تراقبهما منذ ولجا الشقة بصمتٍ، وتحفُّزٍ..

لكنَّ تلك العينان لم تكونا تشبهان أعين البشر..

أبدًا..

******

زفر رئيس الجمهورية بعصبيّةٍ شديدةٍ، هاتفًا:

- لقد تأخّر كثيرًا.

غمغمتْ زوجته في مُحاولَةٍ منها لتهدئته:

- سوف يأتي، لا تقلق.

قال بغضبٍ:

- لقد تغيَّر الوضع كثيرًا بعد اندلاع هذه المظاهرات، قَبْلَها لو مرَّ في خاطري فقط أني أريد أحدًا - أيَّ أحدٍ - لأتاني طوعًا أو كرهًا، ولو حتى حَبْوًا إنْ أنهكه المرض.

ثم ضرب كفًا بكفٍّ مُستطردًا بغضبٍ أشدَّ:

- فلْيذهب الجميع إلى الجحيم، سوف أظلُّ أنا الرئيس رغمًا عن أنوفِهم، حتى ولو تخلَّوْا عني.

ربَّتتْ زوجته على منكبه برفقٍ، مُتمتِمةً:

- رفقًا، الميعاد المحدد لم يَمُرَّ بعد، و...

تعالى في هذه اللحظة صوتُ طرقاتٍ خافتةٍ، ثم فَتَح الباب أحد رجال القوّات المسلَّحة، أدَّى التحية العسكريَّة للرئيس، ثم التفتَ إلى ابنه وأدَّى له التحية نفسها، والذي ردَّها له بغطرستِه المُعتادة، وهتف به الرئيس بعصبيةٍ:

- تأخَّرتَ عن الموعد.

نظر رجل القوات المسلحة في ساعة يده، ثم قلَبَ كفَّيه بدهشةٍ، قائلاً بتوتُّرٍ وارتباكٍ:

- بل لقد أتيتُ في الموعد تمامًا يا سيادة الرئيس.

أشار له الرئيس بالجلوس، فجلس رجل القوات المسلحة، ووضع يديْه فوق ركبتيْه مُنكِّسًا رأسه، كأنَّما أذنب ذنبًا يستحق عنه أن ينكسها، وجلس الرئيس إلى جواره، متسائلاً باهتمامٍ:

- أيفعلونها؟ هل سيتخلّون عني؟

هزَّ الرجل رأسه إيجابًا، مُغمغمًا:

- نعم سيفعلونها، فقط ينتظرون وقْعَ خطابك على الشعب، لن يتدخلوا إلا في الوقت المناسب.

زمجر الرئيس بحنقٍ:

- لقد رفع الناس النعال بعد إلقاء الخطاب، ثم ما هو الوقت المناسب بالنسبة لكم؟ أحين يلقون بي في غياهب السجن؟

بُهِتَ الرجل واحتقن وجهه، متمتمًا:

- لِمَ تجمعُني بهم يا سيادة الرئيس، سيادتك تعلم أني أشدُّ الناس إخلاصًا لك.

لوَّح الرئيس بيده بتأفُّفٍ، قائلاً بحدَّةٍ:

- أنتَ أشدُّ الناس إخلاصًا لنفسك فقط، فأنتَ ترغب بارتياد العُلا دائمًا مهما اعتليت، حتى ولو كان هذا على حساب أحد أبنائك.

ظلَّ الرجل خفيض الرأس وإن احتقن وجهه بشدّةٍ، واحتبست الكلمات في حلقه، على حين نظرت زوجة الرئيس إليه نظرةً لا تخلو مِن عتابٍ، لكنه لم يُعِرْ أحدهما أدنى اهتمامٍ، فقد كان في قمّة توتره وعصبيته، وهو يستطرد قائلاً:

- اسمع ما سأخبرك به جيدًا فهو في غاية الأهمية والخطورة، الموقف يزداد اشتعالاً، ولقد نزلت القوات المسلحة إلى الشارع وانسحبت الشرطة مِن المشهد، أيْ أنَّ الموقف أصبح الآن تحت سيطرة القوات المسلحة، الذين قرروا التخلي عني وأنا في أشد

الحاجة إليهم، لقد فَتَحْتُ السجون وأثَرْتُ الفوضى في البلاد حتى يستشعروا أهمية رجال الشرطة.

غمغم رجل القوات المسلحة:

- لكنَّ هذا ما زاد الأمر إلا بُغضًا مِن الشعب لرجال الشرطة، وكلُّ فردٍ الآن يقوم بحماية بيته وأهله، فمهما بلغ عدد البلطجية فلن يقدروا على شعبٍ بأسره .. ما زاد هذا الموقف إلا تأزمًا وإصرارًا مِن الناس على رحيلك ورحيل نظامك بأَسْرِه.

استشاط الرئيس غضبًا فهتف:

- لن أبرح منصبي، أنا رئيس البلاد.

ثم أغمض عينيه واسترخى في مقعده، مردفًا باستسلامٍ:

- لكنْ على كل حال، إنْ فشلتْ كلُّ السُّبُل لفضّ الميادين، وتركَني المجلس العسكري وحدي في هذه

الدوامة، فلديَّ خطةٌ قد يطول تنفيذها لكنّ فيها الخبر اليقين.

انعقد حاجبا الرجل بشدةٍ وشحذ كلَّ حواسّه للرئيس الذي تابع:

- أعلم عنك أنَّ طموحك بلا حدودٍ ومصالحك الشخصية هي إلهك الأعظم.

شعر بضيقٍ شديدٍ مِن تلك الكلمات لكنه كتم تلك المشاعر بداخله ولم يُبْدِها للرئيس، فحافظ على هدوئه متسائلاً باهتمامٍ:

- وما علاقتي أنا بهذه الخطة؟

ابتسم الرئيس بخبثٍ قائلاً:

- ألا ترغب بأنْ تكون وزيرًا للدفاع؟

ثم مال نحوه، قائلاً:

- أو ربما رئيسًا لمصر.

اجتاحه الذهول وحدَّق بالرئيس بدهشةٍ، متمتمًا:

- أنا؟؟

حافظ الرئيس على ابتسامته، قائلاً:

- نعم أنتَ يا رجل، مصر بحاجة إلى رجلٍ مثلك، أنت أهلٌ لها.

هنا انضمَّ ابن الرئيس إليهم وجلس إلى جوارهم، وقد انبسطتْ على أساريره ابتسامةٌ صفراءُ خاويةٌ، قائلاً:

- نعم يا رجل، أنت أهلٌ لها.

وغمغمت زوجة الرئيس:

- نحن نثق بك، وسوف تجد دعمًا من الجميع.

وأكمل الرئيس كلامها:

- ستجد دعمًا مِن جميع المؤسسات.

وجعل يَعُدُّ على أصابعه، مكملاً:

- ستجد دعمًا مِن الإعلام، فكثيرٌ مِنهم يدعموننا مِن أجل المال أو الخوف، الشرطة، القضاء، كلُّ رجال الحزب الحاكم وكلُّ مَن انتهج نهجهم مِن أصحاب المصالح ورجال الأعمال، باختصار كلُّ مَن له علاقةٌ وطيدةٌ معنا .. كلُّ أباطرة الشر بلا استثناءٍ.

هتف الرجل بدهشةٍ:

- القضاء؟! لكنَّ القضاء مؤسسةٌ لا...

قاطعه الرئيس:

- رجال القضاء ليسوا ملائكةً، دَعْكَ مِن هذه الشعارات الكاذبة، فإنَّ منهم الموالين لنا ومِنهم دون ذلك، وسوف يعينونك بقوةٍ، باختصار ستجد دعمًا مِن كلِّ مؤسسات الدولة – بل ستجد دعمًا من الخارج أيضًا – ودعمًا قويًا لا محالة.

ثم وضع ساقًا فوق الأخرى، مواصلاً:

- أعلم علم اليقين أنه ما دام قد تخلّى عني المجلس العسكري فأنا إلى زوالٍ، ليس ولهًا منهم بالشعب أو مصالحه ولكنْ بغضًا لي، لكنْ هناك دائمًا الأمل، فلن أقبع في مكاني حتى يطيحوا بي، وسوف أحاول قدر المستطاع حماية نفسي مهما كلفني الأمر.

قلب رجل القوات المسلحة كفّيه، قائلاً بصوتٍ خفيضٍ:

- لم يحسموا أمرهم بشأنك بعد يا سيادة الرئيس.

لوَّح الرئيس بيده هاتفًا بعصبيةٍ:

- بل لقد حسموه يا رجل، لكنْ ذَرْهم وما يفعلون، المهم أنْ يظلَّ أمرُ لقائنا هذا سرًا بيني وبينك فقط، هذا حرصًا مني عليك ليس إلا، أريدك أنْ تظلَّ طوال الفترة المقبلة كالدُرِّ قابعًا في القاع إلى أنْ يحين الوقت لتطفو على السطح بكلِّ ما أوتيت من قوةٍ وبريقٍ.

غمغم الرجل:

- لستُ أفهم شيئًا.

تنهَّد الرئيس بعمقٍ، ثم أجاب:

- سأخبرك بكلِّ شيءٍ، لكنَّ المهم أنْ تعثُر أولاً على حسناء ابنة اللواء الشيمي.

تساءل الرجل:

- وما علاقتها بالأمر؟ ما الذي تستطيع فعله إزاء أمرٍ كهذا؟

أجاب الرئيس في لهجة غامضة:

- في جوفها كلُّ القُوى.

اتَّسعت عينا الرجل عن آخرهما، وقلب كفّيه علامة التساؤل، دون أنْ يتفوّه بكلمةٍ، فتابع الرئيس بهدوءٍ:

- ستعلَمُ كلَّ شيءٍ في أوانه، لكنْ عليك أنْ تنفذ ما آمرك به دون إهمالٍ.

تمتم الرجل:

- لكنْ وماذا إنْ فشلتُ؟

ارتسمتْ على شفتي الرئيس ابتسامةٌ خبيثةٌ، قائلاً:

- سيكون جزاؤك كجزاء سنمار*(1)، أتعرفه؟

ارتبك الرجل بشدةٍ، على حين شرع الرئيس يشرح له خطَّته التي وضعها لفضِّ المظاهرات أولاً، ثم الخطّة البديلة في حال فشله.

وكم كانتا خطتيْن في منتهى الخطورة، والحنكة!

- ليتها أصابتني أنا يا بُنيّ، كنتُ أتمنى أنْ أضحّي بروحي فداك، لكنك كنتَ أنتَ الضحية.

كلماتٌ تردّدت في أذني حسناء..

كلماتٌ كان يردّدها والد هذا الطفل الذي لقي مصرعه في ميدان التحرير..

كلماتٌ جعلتها تذرف الدموع من عينيْها كما المطر، فأخْفَتْ عينيْها واخضلّت بها ثيابها، وغصَّةٌ مِن القهر

والمرارة في حلقها جعلتها تنتحب بشدةٍ جرَّاء هذا المشهد الذي ما عاد يفارق ذهنها منذ حدوثه.

ثم التفتتْ مِن بين دموعها إلى ذلك الطفل البريء، الذي يرقد على فِراشها، تتابع أنفاسه المنتظمة، وهو يغطُّ في سباتٍ عميقٍ، في نفس اللحظة التي وَلَج فيها والدها غرفتها، فجعلت تكفكف دموعها، ثم التفتت إليه وسألته بصوتٍ أبحٍّ أشبه بالهمس:

- أين وجدته يا أبي؟

قلب والدها كفَّيه وهو يقول:

- لقد سمعتُ صوتَ طرقاتٍ خافتةٍ على باب المنزل، وحينما ذهبتُ لرؤية الطارق، وجدتُ هذا الطفل أمامي ينظر إليّ بصمتٍ كأنَّه يتفحّصني، وعندما لم أَرُقْ له أخذ يصرخ في وجهي معترضًا على حَمْلي له، لكنْ هيهات! فحينما شعر بسخطي بسبب صراخه وغضبي منه، خشي أنْ أُلقي به مرةً أخرى إلى الخارج في هذا

الطقس السيِّء فلزم الصمت، خوفًا مِن هذا المصير الرهيب الذي ينتظره في الخارج، مِن رعدٍ وبرقٍ ومطرٍ.

ابتسمتْ حسناء ابتسامةً باهتةً، قائلةً:

- لستُ أدري كيف يفعل بشرٌ مثل هذا بطفل؟ كيف يهون عليهم أنْ يلقوا به هكذا؟

وكأنَّما انتقلت تلك الابتسامة الباهتة مِن شفتيها إلى شفتيه، مغمغمًا:

- هناك أناسٌ بلا ضميرٍ.

وأرخى ظهره على مقعده، وشرد ببصره وغاص في بحرٍ مُضطربٍ مِن التفكير العميق، أخرجته حسناء مِنه مغمغمةً:

- لقد بُعث المسخ مرةً أخرى يا أبي، أقسم لك أنّه قد عاد، لقد رأيتُه في المرآة، ورأيتُه في المرحاض، ولقد حدث ما أخبرتك به وأنا على يقينٍ بهذا.

وضع يده خلف رأسه، واسترخى أكثر في مقعده، قائلاً بهدوءٍ:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا، إنَّ كلَّ هذا مجرَّد وهمٍ.

وبغتةً، فتح الطفل عينيْه عن آخرهما ونظر إلى والد حسناء نظرةً لا تخلو من براءةٍ واهتمامٍ، لكنَّ أحدهما لم ينتبه إليه، حتى لقد بدا وكأنه يتابع حديثهما، وحسناء تقول لوالدها بتوتُّرٍ:

- ونعم باللّه يا أبي، لكنني رأيته بالفعل في المنزل ورأيته في ميدان التحرير أيضًا.

ابتسم والدها ابتسامةً شاحبةً وهو يقول:

- لا يمكن لأيٍّ كائنٍ مَن كان، العودة إلى الحياة بعد الموت يا بُنيَّتي، اللّه وحده يُحيي ويُميت، ثم إنّه الآن في المشرحة يقومون بفحصه، ولقد رأيتُه بنفسك وهم يقومون بنقله إلى هناك.

صمت برهةً ثم تابع قائلاً:

- يوم البعث هو يوم القيامة يا حبيبتي، وتسبقه علاماتٌ لم تكتمل حتى الآن، بقي منها الكثير فلا بعثَ لمخلوقٍ في هذه الدنيا إلا آنذاك.

كان الطفل ينظر إليهما، يتابعهما، يتفحَّصهما، شيءٌ لم ينتبه إليه أحدهما، وخاصّةً لأنَّ ذلك الطفل يتابعهما بصمتٍ عجيبٍ وهو يداعب يديه الصغيرتين الرقيقتين، بتلقائيةٍ..

التفتتْ حسناء إليه، فأغمض عينيه بسرعةٍ كأنما يخشى رؤيتها له وهو ينظر إليهما، ولقد تنبَّهت إلى هذا الأمر لكنّه ما أثار شيئًا بداخلها.

ربّما تساءلت لكنَّها كذَّبتْ عينيها، ثم التفتَتْ إلى والدها، قائلةً:

- سوف الجأ إلى الرائد حسام، وسأطلب مِنه رؤية جثة المسخ كي يطمئن قلبي.

تنهَّد والدها بعمقٍ، ثم مطَّ شفتيه قائلاً:

- الداخلية بأكملها لديها ما يُلهيها عن أيِّ شيءٍ في الوقت الحالي، فقد تركوا أماكنهم خاوية على عروشها ولن تتمكني مِن الوصول إليه أو إلى غيره بلا جدالٍ، فالدولة بأكملها تتأجَّج فيها المظاهرات، ولا أظنه سيُفيدك في شيءٍ الآن.

قالت باهتمامٍ:

- إذن، فسوف أذهب بنفسي إلى المشرحة وأطلب رؤيته.

عاد الرجل يتنهَّد، ثم غمغم:

- ومَن سيسمح لك بهذا يا حبيبتي؟ الأمر أصعب مِمّا تتخيلين بكثيرٍ، ثم إنَّ هذا كلَّه مجرَّد وهْمٍ لا يَمُتُّ للواقع بصلةٍ.

هتفتْ بعصبيةٍ شديدةٍ:

- وكيف لكَ أنْ تفسّر لي كيف ننزف أنا وأنتَ في آنٍ واحدٍ مِن أنفينا، مِن حيث صفعنا هذا المسخ؟ كيف لم يتمكّن رجال الشرطة مِن رؤيتنا على الرغم مِن أنَّهم كادوا يرتطمون بنا؟

قلب الرجل كفَّيه، مُتمتمًا:

- لستُ أدري، ربما أمرُ النزيف هذا مجرد مصادفةٍ، فأنا لم أشعر بأي ضربة آلمتني حتى أنزف، أمَّا بالنسبة للموقف الخاصّ برجال الشرطة فغير مفهومٍ ولا أجد له تفسيرًا منطقيًا حتى الآن، وأظنه لا علاقة له بأمر هذا المسخ أبدًا فلو أنه موجودٌ بالفعل، فبكُلِّ تأكيدٍ لن يكترث للقبض علينا، أو حتى قَتْلِنا، فلمَ سيُخْفينا عن أعينهم؟

أشاحتْ عنه بوجهها بضيقٍ، مُطلِقةً زفرةً حرصت على ألَّا يشعر بها حرجًا منه وتوقيرًا له، ثم نظرتْ مرةً أخرى إلى الطفل قائلةً:

- حتى أنتَ لا نعلم ما أمرك، تقول جارتنا منذ أنْ تركناك لها وذهبنا إلى الميدان، أنك تأبى الرضاعة وتأبى أنْ تضع أيَّ قدرٍ مِن الطعام في جوفك، ومع ذلك أراك تنام نومًا هنيئًا مريئًا دون صراخٍ، تُرى ماذا تخفي أنتَ أيضًا؟

وأطرق والدها برأسه أرضًا وآثر الصمت..

آثره مرغمًا فهو لم يُحِرْ جوابًا.

أبدًا.

وقطع حبل صمتهما صوت جرس الباب فذهب ليفتحه مترددًا، في نفس اللحظة التي اشتدَّت فيها الريح، ففتحتْ النافذة على مصراعيها، وانقطع التيار الكهربيّ بغتةً، ثم أضاء سنا البرق، فسقط على وجه الطفل الذي كان يتابع حسناء بصمتٍ، وهي تهرول لإغلاق النافذة على عجالةٍ.

وحينما وقع ضوء البرق على وجه الطفل بدا مخيفًا، ومُرعِبًا..

إلى أقصى حدٍّ.

******

3-الموقعة

دفع هذان المُمرِّضان مِنضدة عمليّاتٍ تحمل جثةً لأحد ضحايا موجة المظاهرات التي عمَّت البلاد، إذ فشلوا بكلِّ السُبل في إنقاذه، ففارقتْ روحه جسده الذي ما عاد يصلح لأنْ تسكنه تلك الروح.

كانا يسيران في رواقٍ طويلٍ يتَّجهان إلى ثلاجة الموتى لحفظ الجثة فيها، لحين حضور أهله لاستلامها، فنظر أحدهما إلى الآخر، وابتسم قائلاً:

- سأُريك اليوم شيئًا لم تَرَه قبل الآن، ولو قضيتَ عمرك كلَّه في مكانٍ آخر لَما رأيته.

عقد الآخر حاجبيْه بشدةٍ، متسائلاً:

- وما الشيء الذي سأشاهده أكثر بشاعةً وغرابةً مِمّا نراه في عملنا هذا؟

عاد صاحبه يبتسم وهو يقول:

- مهما كانتْ بشاعة ما تراه فسوف أرينَّك اليوم ما هو أبشع مِنه.

ظلَّ الآخر ينظر إليه، دون أنْ يتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ، وهو يسأل نفسه بحيرةٍ:

ماذا يمكن أنْ يُريني هذا الرجل أبشع مِمّا يرى مِن جثثٍ وأشلاءَ بشريةٍ، يحملها بيديه في كلِّ يومٍ؟

صحيحٌ أنه اليوم الأول له في هذا المكان، إلا أنه كان يعمل في مستشفًى آخر، وفي المشرحة أيضًا، ولقد رأى الكثير والكثير، مِن أبشع ما يمكن أن يراه أيُّ بشرٍ على الإطلاق، وليس هناك داعٍ للوصف، فالمهنة وحدها ترسم الصورة كاملةً في مخيلة كلٍّ منَّا؟ حقًا، ماذا سيرى أبشع مما يراه؟

ظلَّ يسأل نفسه هذا السؤال، حتى وصلا إلى باب الثلاجة، فحملا الجثة ووضعاها في أحد الأدراج وأغلقاه، ثم جذبه صاحبه مِن يده، واتَّجها إلى درجٍ آخر، أمسك الرجل بمقبضه وتلك الابتسامة ما تزال

تعلو شفتيه كاشفةً عن أسنانه الصفراء الهالكة من كثرة التدخين والإهمال، وكأنَّه سيقدِّم له عرضًا مسرحيًا، وهو يقول بمرحٍ:

- اكتم أنفاسك يا ناظم، فسوف ترى صورةً مُجسَّمةً للرعب بعينه يا فتى.

وكتم ناظم أنفاسه بالفعل، على حين فتح صاحبه الدرج، وما كاد يفعل حتى ارتدَّ ناظم إلى الخلف مذعورًا، وأطلق شهقةً عاليةً وهو يُشيح بوجهه عن هذا المشهد البشع، هاتفًا بارتياعٍ وذهولٍ:

- ما هذا الكائن البشع؟

لقد اعتاد على حَمْل الجثث مهما كانتْ حالتها، لكنّه لم يَعْتَدْ يومًا على رؤية مثل هذا الشيء الذي رآه الآن، وكالأبله ظلّ الآخر مُحافظًا على ابتسامته وهو يقول:

- إنه صنيعة السحر الأسود.

وأخذ خياله الخصب يتفتَّق بخزعبلاتٍ مرعبةٍ، أخذ يقصُّها على المسكين، الذي كان يصدِّق كلَّ كلمةٍ يتفوّه بها ذلك الكاذب، الذي لا يدرك أيَّ شيءٍ عن هذا الكائن سوى أنه نصفُ بشريٍّ والنصف الآخر شيءٌ غير معلومٍ على وجه البسيطة كلها، ولقد كانت تلك المعلومة هي الحقيقة الوحيدة التي رواها عنه، أما أيَّ شيءٍ آخر أخبر به ناظم فمجرّد خرافاتٍ، وقصةٍ مِن وحي خياله لا تشوبها شبهة الاقتباس أو النقل عن أية قصصٍ أخرى.

لكنْ دعوني أنا أخبركم مَن هو هذا المسخ، إنه نـــادر، ابن سامية، ذلك الفتى الذي...

معذرةً، فهناك خطواتٌ بطيئةٌ ثقيلةٌ تدنو مِن باب المشرحة.

وتوتَّر الرجلان بشدةٍ، لذا فقد أغلقا الدرج الذي يحوي الجثة، ودفعا المنضدة أمامهما لمغادرة المكان، لكنَّ صاحب تلك الخطوات البطيئة الثقيلة رأيا ظلَّه مِن خلال باب المشرحة كالمارد يتمدَّد على الأرض، فتوقَّفا

مكانهما ونظرا إلى صاحب تلك الظلال، وحدَّقا به بتوترٍ، ثم لم يلبث ناظم أنْ هتف به بصرامةٍ مُصطَنعةٍ حاول أنْ يخفي بها توتُّره:

- ماذا تفعل هنا يا رجل، إنها ثلاجة الموتى وليست عيادةً للأمراض النفسية والعصبية، اذهب مِن هنا.

وابتسم الرجل..

ابتسم بسخريةٍ غلبت عليها الشراسة، وازدرد الرجلان لعابهما بصعوبةٍ، وهيمن عليهما خوفٌ بلا حدودٍ مِنه..

هذا الرجل مختلفٌ ولا ريب؛ إنّه يُخيفُهما على الرغم مِن كهولته الواضحة، لا يعلمان سببًا لهذا، لكنه يُخيفُهما حقًا ..

وبصوتٍ هادئٍ عميقٍ مخيفٍ، سأل:

- أين جئته؟

نظر الرجلان إلى بعضهما بعضًا بحَيْرةٍ وتساؤلٍ، ثم عادا يلتفتان إليه، وتمتم صاحب ناظم:

- أيُّ جثةٍ يا رجل؟

قال الرجل بنفس اللهجة المُرعِبة العميقة:

- جثة نادر.

صمت برهة دنا خلالها منهما، ثم استطرد:

- أو المسخ، كما تدعونه.

كان يقف أمام منضدة العمليات التي يقومان بدفعها وبلا تردُّدٍ، ودون اتفاقٍ مُسبَقٍ دفعا المنضدة نحوه بعنفٍ وتفرَّقا للفرار.

هرع ناظم عن يمينه والآخر عن يساره، إلَّا أنَّ المنضدة لم تؤثِّر به وكأنَّها اصطدمت بجدارٍ مِن الصلب، فلم تزحزحه من مكانه قيد أنملةٍ، وبسرعة الصاروخ انطلقتْ قبضتاه لتمسكا بهما مِن عنقيهما، وببساطةٍ

رفعهما عن الأرض تمامًا كأنما يحمل طفلين رضيعين، وجحظت عينا الرجلين عن آخريهما، وظلَّا يحرِّكان قدميهما في الهواء وقد شعرا بأنهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة، وهو يقول بغضبٍ:

- قلت لكما الجثة!

ثم ألقاهما بعنفٍ نحو أدراج الجثث، فأخذا يسعلان بألمٍ وهما يتحسَّسان عنقيْهما، وبذعرٍ نهض ناظم ودنا مِن الدرج الذي يحوي جثة المسخ ففتحه، وهو يشير إليها بأصابعَ مرتجفةٍ، وليته ما فعل، فقد كان هذا إيذانًا بالنهاية..

نهايتهما!

وببطءٍ ذهب الرجل نحو الدرج الذي يحوي الجثة، والرجلان يتابعانه بصمتٍ وذعرٍ، دون أنْ يتحرَّك أحدهما مِن مكانه خطوة واحدة، كأنَّما ينتظران إذنه لهما بالانصراف، لكنه لم يفعل، ولن يفعل، فقد انطلقتْ قبضته نحو عنقيهما وعاد يرفعهما عن الأرض وهو

يزيد مِن ضغطه عليهما، وظلَّ الرجلان يقاومان بيأسٍ واستماتةٍ حتى احتقن وجهيْهما وسكنتْ حركتهما تمامًا، وما إنْ شعر بموتهما، حتى أفلتهما وانتزع جثة المسخ مِن الدرج، ووضعها على المائدة ثم قام بتغطيتها، وانطلق بصيده، لكنَّه لم ينقص ثلاجة الموتى شيئًا..

لقد أخذ جثةً واحدةً، لكنه ترك بدلاً مِنها جثتين.

ويا له مِن كريمٍ، وجوادٍ!

******

حزنٌ عارمٌ ذلك الذي يعصف بكيان الرائد حسام مِن جرَّاء تلك المذبحة البشعة التي أَوْدَتْ بحياة كثيرٍ مِن رجال الشرطة، الذين كان آخرهم خيري وناصر وأسعد، ودمعتْ عيناه مِن شدَّة حزنه على كلِّ أولئك الضحايا، إلا أنّه قاوم تلك الدموع التي تصرُّ أنْ تسيل على خدَّيه، وهو يقود سيارته في طريقه إلى منزل الدكتور رامز، ذلك الطبيب الشرعيّ المكلَّف بتشريح جثة نادر ذلك المسخ وأمه، كذلك جميع ضحايا هذا البيت

الملعون، وما هي إلّا لحظاتٌ مِن مغادرته قسم الشرطة حتى كان يجلس معه في منزله، ولقد قابله الرجل بحرارةٍ وبعد عدَّة عباراتِ مُجامَلةٍ وترحابٍ بينهما، سأله الرائد حسام قائلاً:

- ما نتيجة الفحص يا سيدي؟ لقد قرأتُ التقرير لكنني فضَّلتُ التحدُّث معك.

ابتسم الدكتور رامز، مغمغمًا:

- على الرحب والسعة يا بني، لكنْ ليس لديّ أكثر مِمّا كتبته في التقارير.

تنبهَّت كلُّ حواسّ حسام إليه، على حين ارتدَّ الدكتور رامز إلى الخلف وتنهَّد، ثم استدرك قائلاً:

- لم أدَّخرْ جهدًا في إيجاد وسيلةٍ تُمكِّنني مِن تشريح جثة هذا المسخ أو تلك المرأة، لكنني عجزتُ تمامًا عن فِعْل هذا، فكأنَّما هناك قوًى خفيةٌ تَحول دون ذلك، فما أكاد أُقدِم على فحصهما حتى أشعر بأنّي في معزلٍ عن العالم، كأني قد انتقلت إلى عالمٍ لامُتناهٍ مِن العدم..

فقط العدم ولا شيءَ سواه.. أمّا عن خيري وناصر وأسعد، فكتلةٌ مِن اللهب حرقتْ وجوههم، ثم انتقلتْ إلى جوفهم فحرقتْ أحشاءهم.

أخذ الرائد حسام يحكُّ جبهته بعصبيةٍ، ثم قطَّب جبينه بشدةٍ، متسائلاً:

- كيف يا سيدي؟ كيف تُحرِق النيران الوجه ثم الأحشاء؟ كيف لها أنْ تدخل إلى أحشائهم؟

هزَّ الدكتور رامز رأسه، قائلاً:

- حقًا لست أدري كيف حدث هذا، فلا وجودَ حتى لأثر أيِّ آلةٍ حادَّةٍ للحرق دخلت جوفهم، فقط النيران وهذا ما يكاد يصيبني بالجنون فالنيران ليست كائنًا حيًا حتى تجعل مِن أجوافهم مكانًا للتنزه، إلّا إذا...

بتر عبارته عند هذا الحدّ فاستحثَّه على مواصلة الحوار، كأنَّما يتضرَّع إليه قائلاً:

_ إلّا إذا ماذا؟ أكمِلْ بالله عليك!

غرق في تفكيرٍ عميقٍ برهةً، كاد خلالها الرائد حسام يصيبه مسٌّ مِن الجنون، حتى قال الدكتور رامز بهدوءٍ وحيرةٍ:

_ إلّا إذا كانت هذه النيران كائنًا حيًا بالفعل، بحيث يمكنها التنقُّل بإرادتها الحرّة، دونما حاجةٍ إلى وسيلةٍ تُساعِدُها على التحرُّك خلالهم بهذه الطريقة.

اتَّسعتْ عينا الرائد حسام عن آخرهما ذهولاً، فتلك العبارة للمرّة الأولى يسمعها، فلم تَرِدْ في التقرير، لكنه لم يعلّق على هذا الكلام بكلمةٍ واحدةٍ، كأنَّما تلك الكلمات قد أصابت تفكيره بشللٍ تامٍّ، فجعل يقول في قرارة نفسه:

أيُّ خصمٍ هذا الذي نتعامل معه؟ وهل هذا الكائن لم يَلْقَ حتفه وهو المسؤول عن كلِّ ما يحدث؟ هل؟

أسئلةٌ كثيرةٌ فرضتْ نفسها عليه فرضًا لكنَّ جميعها بلا جوابٍ، ولقد مكثا لأكثر مِن ساعةٍ وهما يتحدَّثان ولم يخرج الرائد حسام مِن هذه المحاضرة الطويلة، سوى

ببعض المعلومات عن الجين والكروموسومات والحمض النووي والبصمة الجينية، فاكفهرَّ وجهه وهو يكاد يقسم له أنَّه ما جاء إليه ليتتلمذ على يديه، وإنما جاءه للتحقيق في عدَّة جرائمِ قتلٍ.

وخرج مِن عنده أكثر حزنًا على موت رجال الشرطة..

أكثر بكثيرٍ..

ولم تكنْ تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها الرائد حسام مِن مكتب الدكتور رامز مهزومًا مدحورًا خاوي الوفاض، ولقد كانت المعلومة الوحيدة التي فاز بها في جُلِّ زياراته له هي أنَّ قاتل الرجلين الذي اختطف جثة المسخ مِن المشرحة، يمتلك قوةً خارقةً لا يمتلكها أيُّ بشرٍ على الإطلاق، إلى جانب بعض المعلومات عن الرئة والقلب والشرايين حتى إنه بدأ يفكر مليًا بترك العمل بالشرطة، وممارسة مهنة الطبِّ مِن جراء ذلك الفيض الهائل مِن المعلومات الذي ازدحم به عقله، بل واستبدال لقبه مِن الرائد إلى الدكتور حسام.

وعند خروجه مِن عنده، أخذ يعتصر عقله اعتصارًا وألْفُ سؤالٍ وسؤالٍ يلحُّ عليه، وكلُّها بلا جوابٍ واحدٍ، أولُها: لماذا سرق قاتل الرجلين بالمشرحة جثة نادر المسخ؟

نعم..

لماذا سرقها؟ ماذا سيفعل بها؟ ومَن هو هذا القاتل؟

وظلَّ عقله ينقله مِن سؤالٍ إلى سؤالٍ، ولم يُفِقْ مِن شروده هذا، إلا حينما ارتطم بإحدى الممرضات، وهي التي كانت غارقةً في شرودها مثله حتى النخاع في زوج المستقبل وفارس الأحلام، فأطلقتْ شهقةً عاليةً عند ارتطامه بها، ثم حدجته بنظرةٍ حادّةٍ، على الرغم مِن اعتذاره الشديد لها، وأخذت تسبُّ ساخطةً على هؤلاء الشباب الفاسدين الذين يؤذون بنات الناس، لكنَّه لم يحاول الردَّ لشعوره بالإشفاق عليها، فهو يعلم علم اليقين أنها تتمنى مغازلته لها، حيث إنها لن تجدَ مَن يفعل هذا معها، فيكفي ذلك الصوت الناعم الرقيق الذي لا يقلُّ شراسةً عن صوت الفنان عادل أدهم في

أشدّ أدواره شرًا، وذلك الوجه الذي لا يمتُّ للأنوثة بصلةٍ.

وانطلق الرجل بسيارته على الفور إلى هناك..

إلى حيث يَكمُن حَلُّ كلِّ هذه الألغاز، إلى حيث مسرح الجريمة الحقيقيّ..

إلى بيت سلمان الساحر.

وما كاد يصل إلى هناك حتى ترجَّل مِن السيارة، عند ذلك الحاجز الذي يحيط بالمنزل الذي أصبح منطقةً محرَّمةً خطرةً، ممنوع الاقتراب مِنها، وشعر بسخطٍ عارمٍ مِن رجال الصحافة الذين انهالوا على رجال الأمن بالأسئلة، فأخذ هو ينهال عليهم بالإهانة وعدم إحساسهم بالمسئولية، فانصرفوا ساخطين منه، وما كادوا يفعلون حتى التفتَ هو إلى رجاله، وهتف بهم بغضبٍ:

- ألم أقلْ لكم إلّا الصحافة؟ الدولة بأكملها تلتهب بالمظاهرات والقتل في كلِّ مكانٍ فتركوها وجاءوا إلى

هنا، الأمر لا يتحمَّلهم.

ولوَّح لهم بسبابته مُحذِّرًا وهو يقول:

- إلّا الصحافة.

أومأوا له برؤوسهم متفهِّمين للموقف، فنادى هو قائدهم الذي دنا منه، مؤديًا التحية العسكرية، فربَّت على منكبه وسأله بحزمٍ:

- هل مِن جديدٍ يا حازم؟

هزَّ الرجل رأسه نفيًا، مغمغمًا:

- لا جديد يا سيدي، ونحن ننتظر الأوامر بفحص المنزل و...

قاطعه بعصبيةٍ:

- توخُّوا الحذر يا حازم، ففي هذا المنزل شرٌّ رابضٌ.

قال الرجل بحماسٍ:

- لا تقلق يا سيدي، نحن نُعِدُّ العُدّة لكلّ شيءٍ.

عاد حسام يربِّت على منكبه، مغمغمًا:

- وفَّقكم الله يا حازم.

التفتَ إليه حازم وسأل باهتمامٍ:

- وماذا لو لم نجد شيئًا؟

أجاب:

- عندئذ سنقوم بدكِّ المنزل وإزالته من الوجود، ولو أنني أعتقد أن الأمر لن يقف عند هدم المنزل .. الخطر قد يتجاوز كل الحدود .

عقد حازم حاجبيه بشدةٍ، ثم قال بتوتُّرٍ:

- ألهذا الحدِّ الأمر خطيرٌ؟

أجابه بإيماءةٍ مِن رأسه، مغمغمًا:

- خطيرٌ جدًا يا حازم. خطيرٌ إلى حدِّ أنه يتوقف عليه مستقبلي كلُّه، هكذا أخبرتني جهةٌ سياديةٌ في الدولة بهذا، هذا إن أصبح هناك دولة بعد تلك الثورة.

سأل حازم في اهتمام:

- أيّة جهةٍ سياديةٍ؟

نظر إليه الرائد حسام دون تعليقٍ، فلقد آثر الصمت على أنْ يُجيبه، وظلَّ صامتًا لا ينبسُّ ببنت شفةٍ، يعقد ساعديه خلف ظهره، ويركل بعض الحصى الصغيرة بقدمه بعصبيةٍ شديدةٍ، وبداخله سيلٌ مِن الألغاز لا يعلم لها تفسيرًا..

لماذا يؤجِّلون فحص بيت سلمان؟ على الرغم مِن رغبتهم الشديدة بإغلاق هذه القضية! لماذا؟

لكنَّه لم يَجِدْ جوابًا، أبدًا!

******

مرةً أخرى، عادت حسناء ووالدها إلى الميدان، لكنْ في هذه المرة قاما باصطحاب عمِّها الحاجّ إبراهيم الذي كان شديد الشبه بوالدها، وابنته رضوى تلك الرقيقة ذات الوجه المُشرِق والأنف الدقيق المُنمنَم والشعر الأسود المُسترسِل، فما كادا يصلان لزيارتهما حتى أصرَّتْ حسناء إصرارًا شديدًا أنْ يذهبوا إلى ميدان التحرير، ولقد كانت البلاد في ذلك الوقت تُهيمِن عليها الفوضى العارمة. لكن وعلى الرغم مِن هذا، إلَّا أنَّ أحدًا لم يعترض طريقهم أثناء ذهابهم إليه، بالرغم مِن انتشار اللجان الشعبية في كلِّ الشوارع واعتراضهم لكلِّ غريبٍ يمرُّ بهم، إلَّا هم ولسببٍ غيرِ معلومٍ لم يتعرض لهم أحدٌ.

ذهبوا إليه بعد ذلك الخطاب الذي ألقاه رئيس الجمهورية، استدرارًا مِنه لعاطفة الشعب المصريّ، في مُحاولَةٍ مِنه لامتصاص مَوْجة الغضب الشعبيّ التي سادت البلاد جرَّاء تلك الأحداث الدامية في يوم جمعة الغضب، ولقد لاقى هذا الخطاب استعطافًا مِن الناس حتى إنّ بعض المتظاهرين ساورهم الخوف بأنَّ

الشعب نفسه هو مَن سينقلب عليهم لفضِّ الميدان، ولقد قضوا تلك الليلة بين المتظاهرين حتى الصباح ينتظرون الهجوم، كانوا على يقينٍ به.

علم والدها مِن مصادرَ موثوقٍ بها أنَّه سيحدث، وبكلِّ ما أوتوا مِن قوةٍ وقسوةٍ؛ وبدأ بالفعل الهجوم في الصباح مِن كلِّ اتجاهٍ على الميدان، لكنَّهم تصدُّوا له بكلِّ قوةٍ وجسارةٍ يُحسَد عليها المصريون في هذا اليوم تحديدًا.

ولقد شعر المتظاهرون الذين شاركوا في التصدي للبلطجية بالدهشة والذهول مِن موقف حسناء، التي كانت تُقاتِل معهم كأنَّها أنثى نمرٍ شرسةٍ، تضرب بلا رحمةٍ، حتى إنّ البلطجيّ مِن هؤلاء يخشى ما يخشاه أنْ يقع في براثنها لتَفتِكَ به فتكًا.

لكنْ، وفي خضمِّ تلك الأحداث تحوَّلت المعركة بغتةً إلى ما يشبه إحدى معارك العصور الوسطى؛ فجأةً ظهر بعض الرجال على ظهور الخيل والحمير والجِمال

والبغال، مشهدٌ عجيبٌ في تلك الأيام كأنَّما عاد بنا الزمن إلى الوراء..

مشهدٌ أثار دهشة العالم بأكمله..

مِن العجيب أيضًا أنْ يقف رجال الحرس الجمهوريّ، يمرُّ مِن بينهم هؤلاء القتلة إلى الميدان للنيل مِن المتظاهرين دون أدنى مبادرةٍ لمَنْعهم مِن قتلهم، ولقد اتَّسعتْ عينا حسناء عن آخرهما حين رأتْ هذا المشهد، لكنْ سرعان ما كبحتْ جماح توتُّرِها ودهشتها، وشحذت كلَّ حواسِّها للقتال و...

مرةً أخرى يظهر..

مرةً أخرى ترى هذا المسخ يحدِجُها بنظراتٍ قاسيةٍ مِن فوق جوادٍ أسودَ جامحٍ، عيناه طوليَّتان كمُمتطيه، ويتصاعد مِن جِلدِه أبخرةٌ زرقاءُ نتنةُ الرائحة..

رأته يتقدَّمُهم ويهرول بجواده يشقُّ صفوف المتظاهرين شقًا، دون أنْ يعترضه أحدهم كأنهم لا يرونْه..

كأنَّها هي الوحيدة التي تراه، وكأنه هو أيضًا لا يرى غيرها، ولا يرغب سواها ها هنا..

وبغتةً أيضًا تلاشى الميدان ووجدث نفسها هي وذلك المسخ لا ثالثَ لهما.

توقَّف بعيدًا عنها ببضع أمتارٍ يتطلَّع إليها بصمتٍ، ثم سمعتْ صوته عبر أذنيْها وعقلِها على الرغم مِن أنه لم يفتح شفتيه، عميقًا كأنه مِن أغوار الجحيم، يقول:

- لقد بُعثتُ مِن جديدٍ يا حسناء، بُعثتُ ولن أبرح حتى أقضي على تلك الثورة كأنْ لم تكنْ شيئًا، بُعثتُ ولن أبرح حتى أقضي عليك وعلى كلِّ مَن تحبِّينهم.

صرخت حسناء:

- مستحيلٌ! الموتى لا يعودون إلى الحياة.

انطلقتْ ضحكةٌ شيطانيةٌ عَبر عقلها، ما ظهرتْ على وجهه البشع المتغضِّن، ثم قال دون أنْ يفتح شفتيْه للمرة الثانية:

- أنتِ تعلمين علم اليقين أنني موجودٌ بالفعل ولستُ وهمًا، الدماء التي نزفتْ مِن أنفكِ وأنف والدكِ تشهد على ما أقول.

ثم دنا منها وجعل يدور حولها بجواده، قائلاً عبر عقلها فقد كان يتحدث معها بواسطة التخاطر العقليّ أو كما يسمونه telepathy - التليباثي(2):

- أنا لستُ مِن بني جنسكم حتى تقضي عليَّ بتلك البساطة التي تتخيلينها، فلستُ ضعيفًا مثلكم، وستُثبتُ لكِ الساعات القادمة هذا، كلُّ لحظةٍ ستمرُّ عليك مِن الآن فصاعدًا ستُثبِتُ لك أنَّ بني جنسي هم الأقوى ولا قِبَلَ لكم بنا.

هتفتْ بشراسةٍ:

- وأنا أقسم أنْ ألقِّنكَ درسًا لن تنساه، سألقِّنكَ أنك أضعف وأحقر المخلوقات على وجه الأرض، أنتَ لا شيء.

مال نحوها بغتةً ودنا مِن وجهها الذي أبعدَتْه عن وجهه بتقزُّزٍ جرَّاء تلك الرائحة النتنة الصادرة مِنه ومِن جواده وهو يقول بغضبٍ:

- على كلٍ منَّا أنْ يُثبِتَ ما هو أهلٌ له.

ثم اعتدل مُتابعًا بغضبٍ أشدَّ:

- عليكِ أنْ تُقاتِلي الآن بني جنسك، ثم نتابع عن قريبٍ.

ووكز جواده بقدمه فانطلق به بعيدًا عنها، وظلَّ يبتعد..

ويبتعد..

ويبتعد..

وظلَّتْ هي تُتابعه بصمتٍ وخوفٍ حتى غاب عن بصرها، ومرةً أخرى تنتقل إلى ميدان التحرير وسط

معركةٍ حامية الوطيس، وعند عودتها سمعتْ كلمةً واحدةً..

سمعتْ أحد الشباب يصرخ بها:

- احترسي!

ولم تشعرْ سوى بضربةٍ ساحقةٍ هَوَتْ بعدها فاقدة الوعي..

ضربةٍ هوى بها أحد البلطجية بهراوةٍ ضخمةٍ فوق رأسها على حين غفلةٍ مِنها فارتجَّ كيانها كلُّه ثم هَوَتْ بلا وعيٍ تحت أقدام المتظاهرين، والجِمال والجِياد، فهل ستنجو؟

هل؟

******

ترجَّل قدري مساعد الدكتور صفوت مِن سيارته، وهرول نحو منزل هذا الأخير بلهفةٍ، فوضع يده على

جرس الباب، ولم يرفعْها عنه حتى أتاه صوتُه مِن الداخل هاتفًا به بغضبٍ وحنقٍ:

- ارفع يدك عن الجرس أيها التافه.

ارتبك قدري بشدَّةٍ وقد رفع يده عن الجرس بالفعل، على حين فُتح الباب أمامه أوتوماتيكيًا، والصوت يتابع:

- أنا في غرفة المكتب.

وتوجَّه على الفور إلى الغرفة ففتح بابها، ولم تكُفَّ عيناه عن إبداء نظرة الإعجاب بأثاثها الرائع، الذي يراه للمرة الخمسين بعد المائة، وأمام بابها مباشرةً كان يقبع الدكتور صفوت خلف مكتبٍ فخمٍ، فحيَّاه قدري ثم مدَّ يده مصافحًا إياه وهذا الأول يسأله بهدوءٍ:

- كيف الأخبار يا قدري؟

جلس على المقعد المقابل له وتنهَّد بعمقٍ مغمغمًا:

- الخراب عمَّ الدولة بأكملها، وغرقتْ...

قاطعه بعصبيةٍ شديدةٍ:

- ألن تكفَّ عن هذا الغباء؟ فلتذهبْ الدولة بأكملها إلى الجحيم، أنا أسألك عن حسناء.

امتقع وجه قدري بشدَّةٍ، ثم أجفل قائلاً:

- إنها الآن في ميدان التحرير، ولدينا هناك مَن يرصد كلَّ تحرُّكاتها، حتى أعداد شهيقها وزفيرها.

ثم اتَّسعتْ عيناه عن آخرهما كأنَّه انتبه لتوِّه لشيءٍ ما، هاتفًا باهتمامٍ:

- لكنْ في مثل هذا اليوم؟ إنهم سيقضون على كلِّ مَن فيه، الصراع مُحتدِمٌ الآن بين المتظاهرين وبعضٍ مِن رجال العصور الوسطى فوق الجِمال والجِياد.

ثم ارتشف قدري رشفةَ ماءٍ مِن كوبٍ زجاجيٍّ موجودٍ على المكتب، وتطلَّع إلى الدكتور صفوت بعلامةِ

التساؤل، فلوَّح الأخير بيده متابعًا:

- ستعود، إنها تمتلك القدرة على هذا.

غمغم قدري:

- فلنأمُلْ أنْ تلقى حتفها هناك و..

قاطعه مرةً أخرى بعصبيةٍ:

- أنتَ مجنونٌ ولا ريب.

ومال نحوه وهو يضمُّ قبضته، مُردِفًا بشراسةٍ:

- أنا أريد أنْ أمزِّقها بيديَّ، سوف أسومها العذاب أولاً، ثم أقتلها بنفسي.

عاد وجه قدري ليَمْتَقِع مرةً أخرى، ولم ينبسْ ببنت شفةٍ، في اللحظة التي سمعا فيها صوتًا خافتًا خارج المكتب، فانعقد حاجباهما بتوتُّرٍ وتبادلا نظرة حيرةٍ وقلقٍ مُرهِفان السمع، ثم تمتم قدري:

- هل سمعتَ ذلك الصوت؟ هناك شخصٌ ما في الخارج.

فتح صفوت دُرْجَ مكتبه والتقط مِنه مسدسًا سحب أجزاءه، واتَّجه إلى الباب بحذرٍ دون أنْ يَصْدُر مِنه أدنى صوتٍ، فوقف يسترق السمع برهةً ثم فتح الباب بعنفٍ شاهرًا مسدسه، وجعل يجول ببصره في المكان، فمطَّ شفتيْه حين وجده خاويًا والتفت إلى قدري الذي لم يبرح مكانه، فألفاه مُنكمِشًا في مقعده، شاحب الوجه، فابتسم قائلاً بسخريةٍ:

- ماذا حلَّ بك أيها الصنديد، هل تلك الفترة التي قضيتُها بعيدًا عنك في مَحبَسي أصابتك بالجُبن إلى هذا الحدِّ؟

لوَّح قدري بيده مغمغمًا:

- لا أمان في الوقت الحالي، فلو رأيتَ الشارع وما حلَّ به مِن فوضى، لكان حالك كحالي، لكنك تقبع هنا ولا...

بتر عبارته دفعةً واحدةً وحدّق بشيءٍ ما خلف صفوت، حتى إنّ عينيْه كادتا تقفزان مِن محجريْهما، أمَّا الآخر فقد ازدرد لعابه بصعوبةٍ وعيناه تسأل قدري بضراعةٍ عمّا يراه مِن خلفه، ثم التفتَ إلى الخلف ببطءٍ شديدٍ ويده المُمسكة بالمسدس ترتجف مِن فرط الرعب، وما كاد يرى ذلك الماثل مِن خلفه حتى هوى قلبه مِن بين ضلوعه، وأطلق شهقةً عاليةً وسقط المسدس مِن يده، ثم ارتدَّ إلى الخلف بذعرٍ، لكنْ سرعان ما تفجَّرت الدماء مِن عنقه، فخرَّ أرضًا وجعل يتقلَّب محاولًا منع نزيف الدم بيديه حتى سكنتْ حركته تمامًا حين أصبح جثةً هامدةً، أمّا قدري فقد سقط مِن مقعده أرضًا وجعل يزحف على الأرض وهو يصرخ بضراعةٍ:

- الرحمة، الرحمة.

والتصق بأحد جدران المكتب مُحاوِلاً النهوض، لكنَّ قدميْه عجزتا عن حَمْله على حين أخذ ذلك المجهول يدنو مِنه بخطواتٍ بطيئةٍ ثقيلةٍ..

ظلَّ يدنو..

ويدنو..

ويدنو..

واحتبست الكلمات والصرخات في حَلْق قدري، لكنْ هيهات! انطلقتْ صرختُه.. صرخةٌ تحمل كلَّ رعبٍ وألمِ الدنيا كلِّها..

صرخةٌ أعلن بها النهاية..

نهاية أَجَلِه..

ويا لها مِن نهايةٍ!

******

كانوا يراقبون كلَّ تحرُّكاتِها في قلب الميدان، وعلى الرغم مِن أنَّ هدفهم الأول هو مراقبتها دون إخفاقٍ بتكليفٍ مِن الدكتور صفوت، أو مَن كان قبل لحظاتٍ مِن الآن، وبالطبع لا يُضمِرون لها إلا الشرَّ، لكنهم ودون مبالغةٍ كانوا مِن أشدِّ المُعجبين بها، بجمالها، بجرأتها،

بصمودها، حتى سقطت في الميدان حين هَوَتْ إحدى الهراوات فوق رأسها فغابت عن الوعي.

وحين تكفَّل بعض الشباب لإخراجها، تَبِعُوهم كأنَّهم يخشوْن عليها..

كأنهم أشدُّ الناس خوفًا أنْ يَمسَسْها أيُّ مكروهٍ، فقد كانوا يُفسِحون لهم الطريق حتى أخرجوهم مِن الزحام، كانوا يرغبون بمتابعتها، يسيرون هامِسين لبعضهم ومِن حولهم بعض الشباب يتابعون حسناء وأهلها خوفًا عليها بحقٍّ، ولقد شَمِلَهم اعتقادٌ راسخٌ بأنها لن تصل إلى بيتها سالمةً أبدًا هي ومَن معها.

لكن هيهات! لقد جاءهم ما جعلهم ينسوْن أمرها حين سقط أحد الرجال المُكلَّفين بمراقبتها أرضًا..

رأوه يزحف على الأرض بسرعةٍ خارقةٍ، وقدماه مرفوعتان كأنَّ هناك مَن يجرُّه جرًّا، ثم يرتفع عن الأرض مترًا كاملاً ويُطَّوَح به في أحد الجدران

فتتهشّم رأسه وتتحوّل إلى أشلاءَ تناثرتْ على الحائط والأرض في مشهدٍ رهيبٍ..

لقد حاولوا الإمساك به وإنقاذه لكنْ سبق السيف العذل.

وقف المتظاهرون يحدِّقون في هذا المشهد بذعرٍ وذهولٍ، أمّا رفيقاه فقد شقَّا الصفوف محاولان الهرب مِن عَدُوٍّ لا يعرفانه، ظنًا مِنهما بأنَّ حسناء قد علمتْ بأمرهم فاستخدمتْ كلَّ قُوى الشرِّ لقتلهم. لكنْ، فوجئ أحدهما بالآخر يتوقَّف في مكانه ويضرب بطنه بيديه برعبٍ صارخًا صرخاتٍ مُرعِبةٍ ثم يخور كالثور واسودَّ وجهه كلُّه كأنَّه قد تفحّم فخرَّ عليه كالحَجَر جثةً هامدةً، وواصل الثالث فِراره لكنَّه توقَّف هو الآخر وحذا حذو صاحبه ليلقى نفس المصير؛ تفحّم وجهه هو الآخر.

وسرعان ما انطلقت الصرخات بين صفوف الشباب فمِنهم مَن نال مصير الأول ومنهم مَن نال مصير الرجليْن الآخَرَيْن، كلُّ تلك المذبحة قد جَرَتْ ولم

يلتفتْ إليها أحدٌ، بل وبالمعنى الأكثر دقَّةً، لم يَرَها أحدٌ على الإطلاق.

******

أخذ عَمُّ حسناء يحاول إفاقتَها بعد أنْ سقطتْ فاقدةً الوعي مرةً أخرى حين وصولهم إلى المنزل، ولقد جعل يشكر الله فما تخيَّل ولو للحظةٍ حين اشتدَّ وطيس المعركة ووقعتْ تحت أقدام المتظاهرين أنْ تنجو مِن موتٍ مؤكَّدٍ، ولولا مساعدة الشباب لها للقيت حتفها تحت النِّعال، وبعد عِلاجِها في إحدى المستشفيات الميدانية، أصرَّ والدها على العودة إلى المنزل، على الرغم مِن اعتراض المتظاهرين على هذا حرصًا مِنهم على سلامتها وسلامتهم، خاصَّةً وأنَّ الوضع خارج الميدان شديد السوء، ولقد أثار عدم التعرُّض لهم حين خروجهم مِن الميدان دهشته إلى أقصى حدٍّ، فلقد كانوا يعترضون كلَّ كبيرٍ وصغيرٍ باستثنائهم كأنَّ أحدًا لا يراهم، أو كأنَّما عُمِّيتْ أبصارُهم عنهم، لا أحدَ يعلم السبب لكنْ هذا ما يحدث على أيَّة حالٍ.

وما هي إلَّا لحظاتٌ حتى استعادتْ وعيها، فمال والدها نحوها، وهو الذي كان يتابع المشهد بقلقٍ عارمٍ ولهفةٍ بلا حدودٍ، وطَبَعَ على جبينها قبلةً حانيةً، ولقد اغرورقت عيناه بالدموع، قائلاً بصوتٍ حزينٍ:

- حمدًا لله على سلامتك أيَّتُها البطلة.

شعرتْ بصداعٍ رهيبٍ يَكتَنِفُها، وأخذتْ تنقل بصرها بينهم، مُتمتِمةً:

- ماذا حدث؟ كيف عُدْنا؟

ابتسم عمُّها، قائلاً:

- الميدان بأكمله يتحدَّث عن صمودك في المعركة، وكيف أسقطتِ ثلاثةً مِن القتلة الذين هاجموا الميدان مِن فوق خيولهم.

اعتدلتْ في مجلسها هاتفةً بذهولٍ:

- أنا؟!

نظروا إليها بدهشةٍ وهتفتْ بها رضوى:

- ماذا أصابكِ يا حسناء؟ لقد أبليتِ بلاءً حسنًا تُحسدين عليه.

عادتْ حسناء تكرِّر بذهولٍ أشدَّ:

- أنا؟!

ثم قلبتْ كفَّيها مُتابِعةً:

- لقد عاد ذلك الكائن للظهور فوق جوادٍ أسودَ له عينان طولِيَّتان كعينيْه وانتقل بي إلى مكانٍ مجهولٍ و...

قاطعها والدها بصرامةٍ:

- كَفَى هراءً يا بُنيَّتي، أنتِ لم تبرحي الميدان ولو للحظةٍ ولم يغفل أحدُنا عنكِ ولو لجزءٍ مِن الثانية، وعمُّك وابنته يشهدان على ما أقول ولا أبالغ إنْ قلتُ لك إنَّ الميدان عن بِكْرَة أبيه يشهد على هذا، فالجميع

كان يتابع تلك الفتاة التي كانت تُقاتِل كألف رجلٍ دون كلالٍ كأنها أسد هصور.

كانتْ حسناء تتابعه بصمتٍ والدهشة تتنازعها، لكنها لم تعلِّق بكلمةٍ واحدةٍ فلوَّح لها والدها بيده مردفًا:

- هيا اذهبا إلى غرفتكِ وحاولا النوم فقد أُرهقنا كثيرًا في الميدان.

ثم أشار إلى الطفل الذي ارتسمتْ على شفتيه ضحكةٌ رائعةٌ تنير مُحيَّاه البريء، مُردِفًا:

- اصطحباه معكما لئلَّا يُبرِّحَنا صراخًا وعويلاً، أمَّا أنا وعمُّك فلدينا سهرةٌ طويلةٌ نتبادل فيها المعلومات عن بعضنا، فقد بدَّدْتِ فرحتنا باللقاء حين أصرَرْتِ على الذهاب إلى الميدان.

وربَّتَ عمُّها على منكبها برفقٍ، مشيرًا إليهما للانتقال إلى غرفتها، فتحاملتْ على نفسها وغادرت الأريكة، على حين حملتْ رضوى الطفل، وانتقلا إلى غرفة

حسناء، وما كادتا تنصرفان حتى التفتَ إبراهيم إلى والد الأخيرة، مغمغمًا:

- كيف حالك يا أخي، انتظرتُ زيارتك لي مليًا منذ عودتي مِن السعودية فلم تفعل.

ثم مال نحوه وتابع مداعبًا:

- أم أنك غدوتَ عظيمًا مِن العظماء أصحاب المناصب، فتملَّكَ مِنك الغرور فأهملتَ أخاك في طيِّ النسيان يا رجل؟

أطرق اللواء أحمد برأسه وظلَّ على صمته، فوضع شقيقه يده على فخذه متسائلاً بحيرةٍ:

- ماذا هناك يا أحمد؟ أراك على غير سجيَّتك يا رجل، حتى حسناء تبدو غير مستقرَّةٍ البتة، فماذا أصابكما ؟

ابتسم الآخر ابتسامةً شاحبةً، مغمغمًا:

- سأخبرك بكلِّ شيءٍ.

وطفق يقصُّ على مسامعه قصة حسناء منذ عودتها إلى المنزل، وحتى هذه اللحظة التي يتبادلان فيها أطراف الحديث والرجل يسمعه بذهولٍ وإشفاقٍ، ثم هتف بعد أنْ انتهى الآخر مِن سرد قصته:

- يا إلهي! كلُّ هذا حدث معكما؟

هزَّ شقيقه رأسه إيجابًا، فابتسم إبراهيم ابتسامةً مُشفِقةً، ثم استدرك قائلاً:

- كم هي مسكينةٌ تلك الفتاة، الدنيا تأخذ مِنها ولا تعطيها أبدًا.

وضع اللواء أحمد يديْه خلف رأسه ورجع إلى الخلف مُغمِضًا عينيه، وهو يقول بمرارةٍ:

- ما العمل يا إبراهيم؟ منذ عودة حسناء مِن هذا البيت الملعون وذلك المسخ يطارِدُها ليس فقط في منامها، بل في كلِّ حينٍ، وأخشى ما أخشاه أنْ يكون قد بُعِثَ من جديدٍ حقًا ويسعى للنيل منها.

حار شقيقه في إيجاد الجواب فقلب كفيه، قائلاً بحَيْرةٍ:

- حقًا أعجز حتى عن مجرَّد البحث عن جوابٍ، فأنا لا أعلم شيئًا عن مثل هذا الخصم...

وبتر عبارته عند هذا الحدِّ ثم مال نحوه وسأله باهتمامٍ:

- لكنْ، أتظنُّه قد عاد حقًا؟

أجاب بخفوتٍ:

- نعم قد عاد، أنا أشعر بوجوده ها هنا.

أخذ شقيقه يتلفَّت حوله بخوفٍ، على حين أردف هو بنفس الصوت الخافت:

- لقد شعرتُ بلَكْمةٍ كالقنبلة تهوي على أنفي عند ظهوره لها في الحمام، لم أرَ مَن فعلَها لكني شعرتُ بها،

ولقد نزفتُ على إثْرِها كثيرًا، لكنني لم أخبرها بهذا بل وأحاول جاهدًا ألّا أخبرها به.

خفض إبراهيم صوته هو الآخر مُتسائلاً:

- ولماذا لا تخبرُها بالحقيقة كي تأخذ حِذْرَها مِنه على الأقل؟

لوَّح بيده هاتفًا:

- أقسم لك أني لا أعلم أنا نفسي لمَ لا أخبرها بها، ولا أعلم حتى لِمَ أجادلها في عودته مرة أخرى من عدمها، لكن حتى وإن أخبرتها بمَ سيُجدي هذا معها، لن يزيد الأمر شيئًا سوى مزيدٍ مِن الخوف مِن شيءٍ قد يكون في النهاية مجرّد وهمٍ.

تمتم شقيقه:

- وقد يكون حقيقةً، وهذا ما كنتَ تؤكِّده أنتَ منذ قليلٍ والآن تنفيه!

أغمض اللواء أحمد عينيْه وهو يُطلِق تنهيدةً حارَّةً، ثم فتحهما، بل جحظتا، وكالصاروخ انطلق وأخوه إلى غرفة حسناء.. انطلقا حينما سَمِعا صرختيْن رهيبتيْن.. صرختيْن لفتاتيْن تحملان رعب الدنيا..

وصرخةً لطفلٍ..

طفلٍ يصرخ بذعرٍ.

4-الرعب

جلس حازم فوق أريكةٍ خشبيّةٍ شاعرًا بتوتُّرٍ وقلقٍ شديديْن مِن كلام الرائد حسام معه عن هذا المنزل الملعون، فسأله آسر الذي يصطحبه في نوبة الحراسة بتوتُّرٍ قائلاً:

- ماذا هناك يا حازم، أراك قَلِقًا مُتوتِّرًا، فلِمَ كلُّ هذا؟ إننا ستة أفرادٍ نقوم بحراسة هذا المنزل.

التفتَ إليه حازم ببطءٍ، مُغمغِمًا:

- ألَمْ تسمعْ ما يقصُّه الرائد حسام عن هذا البيت، وما أصاب القائد سلطان ورجاله مِن قَبْلِنا، بل وتلك الأسئلة التي كان ينهال علينا بها رجال الصحافة، والتي كانت وحدها كافيةً لتُحَطِّم الأعصاب؟!

ابتسم آسر ابتسامةً مُصطَنعةً، قائلاً:

- الأمر مُختلفٌ هذه المرة، فقد وضعوا في المنزل أجهزة مراقبةٍ ليليةٍ حساسةٍ جدًا، تنقل كلَّ شيءٍ

بوضوحٍ، على الرغم مِن غَرَق البيت في الظلام، وأجهزة تنصُّتٍ فائقةٍ تنقل حتى دبيب النملة وهي لم تَرصُد شيئًا حتى الآن، ولقد جلس أمام شاشات المراقبة رَجُلان مِن ذلك النوع الذي لا يغفل ولا يهمل أقل التفاصيل مهما بلغ صغرها، لو رأيا ذبابةً لوصلَنَا الخبر مِنهما بأنّها طائر الرُّخِّ الأسطوريّ، هذا بالإضافة إلى تلك الأسلحة التي نحملها، والتي تكفي لشنِّ حربٍ طاحنةٍ، فلا تقلقْ ودَعْ كلَّ ما يُريبُك إلى الله عز وجل.

تنهَّد حازم بقوةٍ ثم عقد ساعديْه أمام صدره، قائلاً:

- ونِعْمَ بالله يا آسر، ونِعْمَ بالله.

ثم غرق في تفكيرٍ عميقٍ، فلَزِمَ آسر الصمت بدوره ولم ينطق بحرفٍ واحدٍ، حتى قطع حازم حبل الصمت، قائلاً:

- هنالك أمرٌ عجيبٌ يا آسر يُثير حفيظتي ويُشعِرُني بالحيرة منذ بداية هذه المهمة.

عقد آسر حاجبيْه بشدّةٍ، وتساءل باهتمامٍ:

- أيُّ أمرٍ هذا؟

أجابه بحَيْرَةٍ بالغةٍ:

- إصرارُ تلك الجهة السيادية التي أبى الرائد حسام أنْ يُفصِح عنها على أنْ تكون فصيلة دم كلِّ طاقمِ الحراسة هنا واحدةٌ، وجَعَلَه يقوم بتأجيل فحص المنزل على الرغم مِن رغبته الشديدة، وكما علمتُ مِن الرائد حسام نفسه، أنَّه يريد غَلْقَ ملف هذه القضية بأسرع وقتٍ.

والتفتَ إليه وهو يستطرد باهتمامٍ:

- ألا يُثير كلَّ هذا الحَيْرَة؟ ويجعلك تشكُّ في أنَّ...

صمتَ عند هذا الحدِّ، فسأله آسر بفضولٍ شديدٍ:

- أنَّ ماذا يا رجل؟

صمت حازم برهةً، أجاب بعدها بشرودٍ:

- أنْ يكون الرائد حسام وتلك الجهة السياديّة المزعومة يعبثان بنا، أو يرغبان باستخدامنا لأمرٍ ما؟

تساءل آسر:

- ماذا تعني؟

أجاب بكلِّ ما يجيش به صدره مِن ضيقٍ:

- أعني أننا قد نكون الوحيدين الذين لا يعلمون شيئًا عن هذا الأمر، أمّا الرائد حسام فيعلمُ كلَّ شيءٍ لكنه يُخفيه عنا هو الآخر لسببٍ لا نعلمه، ويلعبون بنا لعبةً خطيرةً نجهل عواقبها.

تابعه آسر باهتمامٍ حتى انتهى مِن كلامه، ثم شرد بذهنه بعض الوقت، قلّب بعدها كفَّيه ومطَّ شفته السفلى، ثم قال:

- ومَن يدري؟ ربما تكون على حقٍّ.

وابتسم ابتسامةً حاول أنْ يجعلها ساخرةً، ولوَّح بيده وهو يتابع:

- ومَن يدري أيضًا، ربَّما المرحلة التالية هي طلب تحليلاتٍ كاملةٍ لكلٍّ مِنّا.

نطق بهذه العبارة ثم لَمْ يَعُدْ أمامهما سوى الصمت المُطبِق، لكنْ علا صوتُ نقيق الضفادع مِن حولهما كأنهم يتساءلون أيضًا عمّا يحدث، لكنْ ما مِن مُجيبٍ لأحدٍ.

******

لم تكدْ تلك الصرختان تدويّان في المنزل حتى اندفع والد حسناء وعمّها نحو الغرفة بسرعة الصاروخ، واقتحماها بعنفٍ، وما كادا يفعلان حتى انتفضت الفتاتان بشدّةٍ والتفتَتا إليهما بحركةٍ حادّةٍ، على حين حدَّق الرجلان في الغرفة بذهولٍ وهما يجولان ببصرهما فيها، لم يكن هناك ما يثير مجرَّد التوتُّر!

إذن، فلِمَ صرختا هكذا؟

وقلَّب والد حسناء كفَّيْه وانعقد حاجباه بشدَّةٍ حتى صافحا بعضهما وهو يقول بجزعٍ:

- ماذا هناك؟ لمَ تصرخان هكذا؟

نظرت حسناء إلى ابنة عمِّها ذاهلةً، وقلبت كفيْها هي الأخرى كذلك انعقد حاجباها بشدةٍ أيضًا، وهي تسألُها:

- لمَ كنتِ تصرخين هكذا يا رضوى؟

ظلَّتْ رضوى تحدِّق في حسناء برهةً، ثم انفجرتْ ضاحكةً بقوةٍ، وأخذتْ تضرب كفًا بكفٍّ، فهتف بها والدها بغضبٍ:

- رضوى؟!

تلاشتْ ضحكتها دفعةً واحدةً وشعرتْ بحرجٍ شديدٍ، و تزيَّن وجهها بحُمْرة الخجل، مُغمغمةً:

- معذرةً يا أبي.

عاد والدها يهتف بها بصرامةٍ وغضبٍ:

- ماذا حدث؟ ما سبب صراخكما هكذا؟

التفتَتْ إليه حسناء وأجابته:

- لقد وجدتُها بغتةً تحدِّق في وجه الطفل، ثم تنطلق في الصراخ، وما وجدتُ نفسي إلَّا أنْ حذوتُ حذوها دون أنْ أدري سببًا لصُراخها، وانطلق الطفل أيضًا يصرخ بفزعٍ، هذا ما حدث.

نظر إبراهيم إلى ابنته رضوى وقال بانفعالٍ:

- هل أُصبْتِ بالجنون يا رضوى؟

تنحنحتْ بحرجٍ شديدٍ، جاعلةً يدها على فمها، خشيةَ أنْ تَفلِتَ ضحكتها مرةً أخرى، ثم قالت بصوتٍ مبحوحٍ:

- لا شيء يا أبي، معذرةً.

جعلوا ينظرون إلى بعضهم بعضًا بصمتٍ ودهشةٍ، ثم انفجر الجميع ضاحكين دون مقدماتٍ، وأخذ كلُّ واحدٍ مِنهم يُلقي بتعليقٍ ساخرٍ على رضوى التي أخذتْ

تسعُل بقوَّةٍ مِن شدَّة الضحك، كذلك كان لـحسناء نصيب من تلك السخرية، ثم خرج الرجلان بعد ذلك، وخلفهما حسناء استجابةً لنداء عمِّها إبراهيم الذي وضع يده على مَنكبها، وهو يقول باهتمامٍ:

- اسمعي يا بُنيَّتي، لقد سمعتُ مِن والدك عن الكوابيس التي تُراوِدك في منامك ويقظتك وأحبُّ أنْ أمنحك بعض النصائح.

خفضت حسناء عينيْها أرضًا، على حين استدرك هو قائلاً:

- حافظي على الصلاة في أوقاتها وعلى تلاوة القرآن، كذلك حافظي على أذكار الصباح والمساء فإنَّهما منجاةٌ لكِ مِن كلِّ هذا.

ثم تناول كوبًا زجاجيًا عن منضدةٍ صغيرةٍ مُجاورةٍ له، ممتلئٌ بالماء عن آخره ناوله لها، وهو يقول:

- اشربي مِن هذا، إنّه مِن ماء زمزم المُبارك، أحضرتُ لكما كميةً لا بأس بها عند عودتي مِن الحجِّ تلبيةً لطلب

والدك.

تناولت الكوب مِن يده، وهو يتابع:

- إنَّه لِما شُرِبَ له.

وبتؤدَةٍ قالت:

- كما ترى يا عمّي، أشكر لكَ هذا.

وهمَّتْ بالانصراف قائلةً:

- عن إذنكما.

وانصرفتْ على الفور حاملةً كوب الماء في يدها، وعادتْ تستأذنُهما مرةً أخرى لتُغلِق الباب، ثم ضحكتْ في وجه رضوى وهي تقول بمرحٍ:

- لقد أحضرتُ لك ترياقًا لمُداواتِك وهذا المسكين الذي أُصيب بالفزع لصراخنا.

ورشفتْ مِن الكوب بعضه، ثم جعلتْ أطراف أناملها فيه وأخذتْ ترشُّها برذاذ الماء والأخرى تضحك وتخفي وجهها بيديها هاتفةً:

- أيتها المجنونة.

وتركتْها حسناء ثم التفتَتْ إلى الطفل، الذي لم تنتبه إلى تلك النظرة المَذعورة التي تطلُّ مِن عينيه، وهو ينظر إليها حين عادتْ تضع أطراف أصابعها في الكوب مرةً أخرى، ثم ترشُّه برذاذ الماء..

ماء زمزم المبارك.

وما كادت المياه تمسُّه، حتى أطلق الطفل صرخةً هائلةً، واتَّسعتْ حدقتا الفتاتين بذهولٍ يفوق إمكان الوصف، فما يحدث أمامهما كان رهيبًا..

رهيبًا بحقٍّ.

******

نزع الدكتور رامز قفَّازيْه بعد أن انتهى مِن فحص بعض الجثث التي سقطتْ في المظاهرات، والتي قضتْ نَحْبَها بنفس الصورة التي سقط بها ضحايا بيت سلمان، لكنْ هذه المرة اختلفتْ بعض الشيء؛ فهناك حالاتٌ مُهشَّمةُ الرأس تمامًا إلى جانب هؤلاء الذين احترقتْ وجوههم وأفواههم، ثم انتقل إلى مكتبه فارتمى فوق مقعدٍ وثيرٍ، مُغمِضًا عينيْه بإرهاقٍ شديدٍ، مُغمغِمًا:

- كيف انتقل هذا الشيء إلى المظاهرات، ومِن أين له بتلك القوّة الخارقة التي تمكِّنه مِن تحطيم الجمجمة بتلك الصورة؟ آثار قبضته الفولاذية تبدو على القَدَم بوضوحٍ.

ثم زفر بضيقٍ شديدٍ وهو يقول لنفسه بخفوتٍ:

- أنا ما عُدْتُ قادرًا على ربط الأحداث ببعضها، كائنٌ يمتلك قوةً خارقةً بهذه الصورة لا ينتمي إلى البشر بكلِّ تأكيدٍ.. نيران تُحرِق الوجوه والأجواف.. ما علاقة هذا بذاك؟ وهل هي أشياءُ مِن عوالمَ أخرى أم أنه

سلاحٌ جديدٌ مِن أسلحة الداخلية لم يتمّ الإفصاح عنه حتى الآن؟

وجعل يفرك عينيه بقوةٍ، ثم انتقل إلى جهاز الكمبيوتر الخاصّ به وشرع يدوّن تقريره عن الواقعة، التقط بعدها كوبًا مِن الماء جَرَعَه دفعةً واحدةً، على الرغم مِن عدم إحساسه بالظمأ، خاصّةً في مثل هذا الطقس البارد، لكنَّه تصرُّفٌ غيرُ معلومِ السبب، وما كاد يفرغ مِن كتابة التقرير حتى انتقل خلف مكتبه، وجعل يُطالِع بعض التقارير السالف كتابتها عن نفس المأساة باهتمامٍ بالغٍ، غاص بعدها في تفكيرٍ عميقٍ حتى النخاع، وبغتةً بشَّ وجهُه هاتفًا بسعادةٍ غامرةٍ:

- يا إلهي! هل القضاء على هذا الشيء بهذه البساطة، إلى هذا الحدِّ!؟

وجعل يبحث عن نظارته الطبيّة فلم يجدها، وتذكَّر أنّه قد نسيها في المشرحة فانتقل على الفور إليها على عُجالةٍ، ففتح الباب ولم يَكَدْ يخطو إلى الداخل حتى أُغلِق الباب بعنفٍ، فارتعدتْ فرائصه وهو ينظر إلى

الخلف بحركةٍ حادَّةٍ، لكنْ سرعان ما تناهى إلى مسامعه حركةٌ خفيفةٌ مِن ورائه، تحديدًا حيث ترقد إحدى الجثث التي كان يقوم بفحصها منذ قليلٍ.

وببطءٍ شديدٍ للغاية أدار وجهه إلى الخلف، وقد اصطكَّتْ أسنانه وكاد قلبه يقفز مِن بين ضلوعه، لكنْ ما مِن شيءٍ..

كلُّ شيءٍ يبدو ساكنًا، وتسمَّرتْ قدماه لبعض الوقت، عاد بعدها يتمالك جأشه ويتحرَّك نحو منضدةٍ صغيرةٍ في أحد الأركان لالتقاط نظَّارته الطبيّة، فأمسكها بأصابعَ مُرتجِفةٍ، وعاد إلى الباب مرةً أخرى مُحاوِلاً فتحه لكنه لم يستجب له أبدًا.

ومرةً أخرى تناهى إلى مسامعه تلك الحركة الخافتة مِن خلفه..

ومرةً ثانية عاد يلتفتُ إلى الخلف بنفس البُطء، ثم جعل يُجيل عينيْه في أديم المكان، و ...

وبغتةً..

اعتدلت الجثة التي كان يقوم بفحصها..

دبَّتْ فيها الحياة دفعةً واحدةً وأطلقتْ صرخةً هائلةً صمَّتْ أذنيه، فجعل سبابتيه فيهما مُغمِضًا عينيْه مِن فرط الألم، ثم انطلقتْ مِن فم الجثة كرةٌ مِن النار وعادت الجثة تَسكُن حركتها مرةً أخرى..

وانطلقتْ كرةُ النار نحو فمه فاخترقته ليَلقى نفس المصير الأسود، فيهوي على الأرض جثةً هامدةً..

احترقتْ أحشاؤها ثم تأجَّجت النيران في المكان بأكمله فتحوَّل إلى أتونٍ مُستعِرٍ، ولم تخمدْ تلك النيران إلا بعد أنْ تفحَّم كلُّ ما فيها، ومَن فيها عن بكرة أبيه.

******

وضع إبراهيم ملابسه على المِشجَب، بعدما قام بارتداء بيجامة شقيقه استعدادًا للنوم، ثم تمطَّى وهو يتثاءب بتكاسُلٍ، قائلاً بعدما قام بتشغيل المِدفأة:

- مجنونةٌ رضوى ابنتي، لقد كادتْ تُوقِف قلبي عن النبض مِن شدّة الخوف عليها وعلى حسناء.

ابتسم اللواء أحمد ابتسامةً خفيفةً، ثم قال:

- دعْها وشأنها يا رَجُل، إنَّها في ضيافتي وما دامتْ هكذا فلْتفعَلْ ما يحلو لها.

عاد إبراهيم يتثاءب بشدةٍ، واضعًا ظَهْر يده اليسرى على فيه، مُستعيذًا بالله مِن الشيطان الرجيم، ثم قال بصوتٍ مُتكاسِلٍ يقطُر نُعاسًا:

- لستُ أدري لمَ تُحبُّها كلَّ هذا الحبَّ؟ أعتقد أنه لو كان لك ابنةٌ ما...

قاطعه شقيقه هذه المرَّة بلهجةٍ لا تخلو مِن حِدَّةٍ:

- صه يا إبراهيم! لقد حذَّرتُكَ مِن قبلُ وأكثر مِن مرةٍ عن الحديث في هذا الأمر.

لوَّح إبراهيم بيده مُتَّجهًا نحو الفِراش، ورفع الغطاء ثم قَبَع تحته وهو يقول:

- حسنًا يا أحمد، دعْنا ننام كي يمكننا الاستيقاظ لصلاة الفجر بدلاً مِن قضاء الليلة في صراعٍ حادٍّ.

اتَّجه أحمد إلى الفِراش بدوره، مُغمغِمًا بضيقٍ:

- هذا أفضل بكثيرٍ مِمّا قد يصل بنا الحال إذا واصلنا الحوار سويًا.

واندسَّ تحت الفِراش، مُتابعًا:

- تُصبحْ على خيرٍ يا أخي.

ولكنْ يبدو أنَّ هذه الجملة الأخيرة لم تَصلْ إلى أذنيه، إذ ارتفع صوتُ شخيره المزعج الذي طالما كان يتأذَّى منه أحمد أثناء شبابهما، لكنَّ الحقَّ يقال فقد كان يحسُده على هذا الأمر، فكونه يضع رأسه على وسادته فينام دليل على خلو ذهنه من الهموم وعد الإنشغال بأي شيء، وما هي إلّا لحظاتٌ حتى التصق جفناه،

وطواه سباتٌ عميقٌ لم يستمرَّ طويلاً إذ فتح عينيْه بغتةً على صوتٍ بدا له كقَرْع الطُّبول..

صوتٌ عجيبٌ..

عجيبٌ بحقٍّ.

ثم، ومِن تحت الغطاء، رأى ما لا يصدِّقه عقلٌ..

رأى امرأةً تأتي مِن هناك..

مِن بعيدٍ..

تلاشى كلُّ شيءٍ مِن حولِه. ولم يَعُدْ هناك أيّة تفاصيلٍ سوى هذه المرأة التي بّدّتْ شاحبة الوجه وتَمُدُّ يدها إليه، وهي تقول بضراعةٍ:

- أحمد، إني أشتاق إليك.

كانتْ زوجته التي وافتها المنيّة منذ سنواتٍ عدّةٍ، ولقد ظلَّ يعيش على ذكراها حتى هذه اللحظات رافضًا أنْ

تحلَّ امرأةٌ أخرى محلَّها، واتَّسعتْ عيناه عن آخرهما بذعرٍ وهو يهتف:

- مستحيلٌ! أنتِ ميتةٌ والموتى لا يعودون إلى الحياة.

ظلَّتْ تدنو مِنه وهو يحدِّق فيها، لكنه عاجزٌ عن الحركة تمامًا..

إنه مازال نائمًا على جانبه الأيمن، ولا يزال الغطاء فوق رأسه، وكم تمنَّى أنْ يكون كلُّ هذا مجرَّد كابوسٍ لو أفاقَ مِنه..

كابوسٍ رهيبٍ بكلِّ المقاييس..

ورآها تنام إلى جواره، وهو لا يكاد يصدِّق ما يراه..

مستحيلٌ أنْ يكون هناك كابوسٌ بهذا الوضوح..

مستحيلٌ!

ومرةٍ أخرى عاد يصرخ بفزعٍ:

- مستحيلٌ، أنتِ ميتةٌ .. ميتةٌ.

صحيحٌ أنَّها تُشبِه زوجته أو تكاد تكون هي، لكنه يراها في تلك اللحظات مخيفةً وبشعةً..

بشعةً إلى أقصى حدٍّ.

وعند إلقاء كلمته الأخيرة تبدَّلتْ ملامحها تمامًا، وتحوَّلتْ إلى تلك الهيئة البشعة التي سمع عنها مِن ابنته حسناء عند عودتها مِن بيت الساحر..

هيئة نادر المسخ..

وبكلِّ الرعب والفزع صرخ الرجل..

ظلَّ يصرخ، لكنَّ صرخته لم تتجاوز حَلْقَه، ولم يسمع صراخه إلا نفسه ..

وبهدوءٍ شرسٍ اعتدل المسخ، وقال بصوتٍ بدا وكأنه يأتي مِن أغوار بئرٍ سحيقةٍ:

- لقد عُدْتُ، عُدْتُ لانتقم مِن ابنتك.

وأشار بسبابته ذاتِ المخلبِ الطويل، وهو يتابع بشراسةٍ:

- ومِنكَ.

صرخ الرجل بفزعٍ:

- أنتَ وَهْمٌ، وَهْمٌ.

ابتسم المسخ ابتسامةً مَقيتةً كشفتْ عن أسنانٍ سوداءَ كوجهه غيرِ منتظمةٍ، ودنا مِن وجه الرجل الذي كادت عيناه تقفزان مِن مِحجرَيْهما مِن فرط الرعب، وقال بهدوءٍ شرسٍ:

- بل حقيقةٌ يا رَجُل، حقيقةٌ.

وبسرعةٍ رهيبةٍ انطلقتْ قبضته نحو عنقه، وغاصتْ مخالبه فيها، فجحظتْ عيناه عن آخرهما واحتقن وجهه شاعرًا باختناقٍ رهيبٍ، وباستماتةٍ وكمُحاوَلةٍ يائسةٍ مِنه للمقاومة امتدَّتْ يده نحو عنق المسخ،

وأخذ يُطبِق عليها وهو يشعر بأنَّه يَلفِظ أنفاسه الأخيرة..

يلفِظُها بحقٍّ.

وبغتةً تلاشى المسخ وتناهى إلى مسامعه صوت شهقةٍ عاليةٍ إلى جواره..

شهقة شقيقه إبراهيم الذي كان يقبض هو على عنقه بقوةٍ واستماتةٍ، فتركها بغتةً وارتدَّ إلى الخلف مذعورًا، وانتفض مِن تحت الغطاء بسرعةِ البرق، على حين اتَّسعتْ عينا شقيقه إبراهيم عن آخرهما، وظلَّ يحدِّق فيه مُمسِكًا بعنقه يتحسَّسُها بذهولٍ والسعال يكاد يقتله، ثم لوَّح بيده هاتفًا بغضبٍ:

- هل أنتَ مجنونٌ؟ لقد كِدْتَ تقتلني.

ولم يستطع الإجابة، فقط كان يحدِّق فيه بصمتٍ، ورعبٍ، وظلَّ إبراهيم يسبُّ ساخطًا، لكنه لزم الصمت بغتةً، وامتدَّتْ يده نحو عنق شقيقه، لتمسح ذلك السائل اللزج الدافئ الذي يسيل عليها..

ذلك السائل الأحمر القان ألا وهو الدم..

دمٌ سال مِن خمسة جروحٍ غائرةٍ في عنقه لخمسة مخالبَ رهيبةٍ.

******

مجرَّد قطرة ماءٍ واحدةٍ أو اثنتين أصابتا الطفل، لكنَّهما كانتا ولشدَّة ذهول حسناء ورضوى أشدَّ مِن حمض الكبريتيك المُركَّز في تأثيرهما على الطفل، إذ أخذتا تأكلان الجلد في مشهدٍ بشعٍ رهيبٍ، مِمّا جعل حسناء تُلقي الكوب مِن يدها بذعرٍ، وتجفِّف يديها بسرعةٍ رهيبةٍ خوفًا على أصابعها مِن أنْ يكون للمياه نفس ذلك التأثير الذي تركته على جِلْد الطفل، وأسرعتْ نحو هذا الأخير، ثم حملته وضمَّته إلى صدرها بحنانٍ وإشفاقٍ عارميْن، والطفل يصرخ صراخًا متواصلاً لا ينقطع، وهو يتلَّوى بين يديْها حتى هدأ بعد لحظاتٍ، ثم جعلتْ تشخص ورضوى إلى هذيْن الجرحيْن اللذيْن سبَّبتهُما قَطْرَتا الماء بجزعٍ، وتنظران إلى بعضهما بعضًا بين الحين والآخر مذهولتيْن مِمّا أصاب الطفل، لكنَّهما

لمستا المياه فلم يُصبْهما أدنى أذًى، فلماذا الطفل إذن؟ لماذا؟!

وما هي إلا لحظاتٌ حتى غطَّ الطفل في نومٍ عميقٍ بعد أنْ رفض تمامًا كالمعتاد تناوُلَ وجبته مِن اللبن الصناعيّ، كأنَّه يحتجُّ على ما فعلته حسناء به، وما كاد يفعل حتى همستْ رضوى:

- ألن نخبر والديْنا بما حدث؟

همست حسناء:

- في الصباح بإذن الله، فأظنُّهما يغرقان في الأحلام الآن.

ابتسمت رضوى ابتسامةً متوترةً، مُتمتِمةً:

- كما تشائين.

ثم اتَّجهتْ نحو باب الغرفة فسألتها حسناء هامسةً، وهي تسترق النظر إلى الطفل خشية إيقاظه:

- إلى أين؟

أجابتْ دون أنْ تلتفِتَ إليها:

- جفَّ حَلْقي مِن العطش، سأذهب للمطبخ كي أشرب.

وانصرفتْ مُوصِدةً الباب مِن خلفِها برفقٍ، ثم وَلَجتْ المطبخ ففتحت الثلاجة، وتناولتْ مِنها زجاجة مياهٍ باردةٍ، على الرغم مِن ذلك الطقس شديد البرودة، ورفعت الزجاجة على فمها، وما كادتْ تفعل حتى أُغلِق باب المطبخ بعنفٍ فسقطت الزجاجة مِن يدها، وهرولتْ نحو الباب وأخذتْ تُحاوِل فتْحه، فلمَّا فشلت أخذت تدقُّه بكلتا قبضتيها وهي تنادى عليهم جميعًا كلٌّ باسمه، لكنْ ما مِن مجيبٍ.

وبغتةً، سمعتْ صوتًا خافتًا يأتي مِن خلفها فالتفتَتْ بحركةٍ حادّةٍ، والتصقتْ بالباب وقلبها يكاد يتوقَّف عن النبض مِن فرط الرعب، الذي اجتاح كلَّ خلجةٍ مِن خلجات جسدها، لكنها لم ترَ شيئًا..

أيَّ شيءٍ!

وراح ضوء المطبخ يخفِتُ تدريجيًا وهي تنهار رويدًا رويدًا، حتى جلستْ على الأرض، وأخذتْ تبكي وجسدها كلُّه ينتفض بشدةٍ زاحفةً على الأرض، حتى وصلتْ إلى دولاب المطبخ ففتحتْ أحد أدراجه وتناولت مِنه سكينًا حادًا.

مرةً أخرى عاد ذلك الصوت الخافت مِن جديدٍ، وازدادتْ هي خوفًا ورعبًا وبكاءً، إنَّها لا ترى شيئًا، لكنَّ ذلك الصوت يؤكِّد وجود شخصٍ ما معها في المكان، وساد الظلام تمامًا..

غرق المكان في ظلامٍ دامسٍ لبعض الوقت فكاد قلبُها المُرتجِف يكاد يتوقَّف عن النبض ثم عاد الضوء يغمُر المطبخ، وأطلقتْ رضوى صرخةً هائلةً رهيبةً..

صرخةَ فتاةٍ تعيش الفزع..

كلِّ الفزع.

******

كان بوجهه وعنقه جرحيْن غائريْن، ذلك المسخ البشع ذو العينيْن الطوليَّتيْن الحمراويْن بلون الدم والذي ظهر فجأةً أمام رضوى، حينما عاد الضوء يغمر المكان، ولقد شلَّتْ تلك الصدمة جميع أطرافها، لذا فلمْ تستطعْ مجرَّد رفع يدها بذلك السكين الحادِّ الذي تحمله، إذ هوى قلبها واصطكَّتْ أسنانها بصوتٍ مسموعٍ حينما دنا منها، لتشعر بأنفاسه الدافئة ورائحته النتنة، وامتدَّتْ يده ذات المخالب الرهيبة لتُمسِك بعنقها ويتفرَّس في ملامحها، ثم يُطلِق ضحكةً ساخرةً مُرعبةً عميقةً، و ..

ونظرتْ إلى زجاجة المياه المثلَّجة التي بيدها، وإلى باب الثلاجة المفتوح وأخذت تتلفَّتُ حولها بذعرٍ..

لا مسخ!

لا سِكّين في يدها!

بل إنَّها مازالت بجوار الثلاجة، ولم تتحرَّك قيد أنملةٍ مِن مكانها، ثم التفتتَ إلى باب المطبخ المفتوح على مصراعيه، فأعادت الزجاجة إلى الثلاجة بسرعةٍ، دون

أنْ تُغلِق بابها بل ودون حتى أنْ تشرب وأسرعت إلى الخارج فبُوغِتتْ بها حسناء تفتح الباب *بل تقتحم الغرفة اقتحامًا* فهرولتْ إليها بقلقٍ بالغِ الذروة، هاتفةً:

- ماذا هناك يا رضوى؟ ماذا حدث؟

انهارتْ رضوى على الفِراش، وجسدُها كلُّه ينتفض رعبًا، دون أنْ تنطِق بكلمةٍ واحدةٍ، فعادت حسناء تمسك بمنكبيْها وتهزُّها، مُكرِّرةً بانفعالٍ شديدٍ:

- ماذا هناك يا رضوى؟

ظلَّتْ تحدِّق فيها بصمتٍ ثم ارتمت في حُضنِها بغتةً، مُجهِشةً ببكاءٍ حارٍّ، مُتمتِمةً برعبٍ:

- المسخ يا حسناء.. المسخ.

أبعدتْها حسناء عنها بطول ذراعيْها برفقٍ، ثم نظرتْ إلى عينيْها مباشرةً، وهي تسأل باهتمامٍ وتوتُّرٍ بالغيْن:

- أيُّ مسخٍ يا رضوى؟

وأمام عينيها ارتسمت صورته..

صورة المسخ، المُستنسَخ، ولقد تأكَّدتْ هذه المرة بأنه قد عاد إلى الحياة مرةً أخرى، حينما تمالكت رضوى رباطة جأشها، وقصَّتْ على مسامعها ما حدث معها في المطبخ، ولقد وصفتْ لها المسخ..

إنَّه هو..

لقد عاد لينتقم مِنها، هو أخبرها بهذا، لقد رأتْه رضوى أيضًا..

رأتْه مثلما رأتْه هي في الحمَّام وفي الميدان!

إذن، فهو هنا ولا ريب، فيما بينهم..

وفي قرارة نفسِها قالت:

- يجب أنْ أرى جثته بنفسي، سأطلب مِن الرائد حسام هذا وهو لن يرفضه، سأذهب إليه في الصباح وأخبره

بكلِّ شيءٍ .. لكنْ ماذا عساه أنْ يفعل مع خصمٍ رهيبٍ كهذا؟

نعم، ما الذي يَسَعُه عمله؟

لابُدّ أنْ تفعل شيئًا لمجابهة هذا الخصم..

لابُدّ.

تنهّدتْ حسناء بعمقٍ، ثم نظرت إلى رضوى وجلستْ إلى جوارها على الفِراش، جاعلةً يدها على منكبيْها، وضمّتها إليها برفقٍ مُغمغِمةً محاولة تهدئتها:

- اطمئني يا رضوى، إنّه مجرّد وَهْمٍ.

أطبقتْ رضوى الصمت، فقد أصابها ذلك الموقف بصدمةٍ شديدةٍ ألجمتْ لسانها، وطالت فترة صمتها، ولم تنتبه إحداهما إلى عيني الطفل اللتين فتحهما بغتةً ونظر إليهما..

كان ينظر إليهما ببُغْضٍ..

بغضٍ رهيبٍ ..

وكم كان مِن العجيب أنْ تُطِلَّ مِن عيني طفلٍ في المهد تلك النظرات المُخيفة الرهيبة!

وفجأةً تدلَّى ستارٌ أسودُ في موضع الباب فحجبهما عن الخارج، مُبدِّدًا ذلك الصمت الذي خيَّم عليهما، ومُبدِّدًا تلك الحالة مِن الهدوء والسكينة، التي قد بدأتْ تتسلَّل إلى قلبيهما، وانتفضتْ الفتاتان مِن مكانهما، ونظرتا إلى بعضهما بعضًا بذعرٍ، ثم يمَّمَتا مُحيَّاهما شطر الباب فأطلقتا شهقتيْن رهيبتيْن..

فقد كان ما تريانه رهيبًا إلى أقصى حدٍّ..

لقد رأتا شلالاً مِن الدماء يأتي مِن تحت السِّتار الأسود ببطءٍ ثقيلٍ مُخيفٍ، لكنَّ ما حدث بعد ذلك كان أكثر بشاعةً مِن هذا..

لقد كان ما يحدث مرعبًا..

بل هو الرعب بعينه..

******

في ردهة منزله اتَّكأ الرائد حسام على متَّكئٍ وثيرٍ حائرًا تائهًا، شديد القلق والتوتُّر مِن موقف ذلك الشخص الذي ظهر مؤخَّرًا في مجريات الأحداث، والذي يُطلِق عليه هو الجهة السيادية ولقد أمره بعدم الإفصاح عن شخصيته لدواعٍ أمنيَّةٍ، كيف يأمُره بل وذلك السؤال الذي يكاد يصيبه بالجنون، فصيلة دم الرجال الذين يقومون بحراسة بيت سلمان يجب أنْ تكون واحدةً، وهي فصيلةٌ نادرةٌ جدًا، لذا فقد حار حتى تمَّ العثور على هؤلاء الرجال الستة، وزفر بقوةٍ ثم قال بإحباطٍ شديدٍ:

- غموضٌ، غموضٌ! كلُّ شيءٍ يكتنفه الغموض.

وعاد يشرد بذهنه، ويسأل نفسه، وكأنَّ دوره في كلِّ ما يحدث هو التساؤل فقط، وكأنَّ الجواب عن كلِّ ما يتساءل عنه أنه لا جوابَ.

كاد الجنون يسيطر عليه، وتشابكت كلُّ الأمور في ذهنه، وبَدَتْ كلُّها مُعقدَّةً مُبهمَةً، لذا فقد كان الرائد

حسام يلتهم السيجارة التي تقع بين أصابعه التهامًا كأنما يثأر منها، حتى إنّ صدره بدأ يستغيث مِن كمية الدخان الرهيبة التي فاقت عوادم مصانع الحديد والصلب، لو اقتربتَ مِنه لسمعتَ صوت أنين صدره بوضوحٍ، لدرجة إنّه قد شعر بعدم قدرته على التنفُّس فألقى رأسه على ظهر المقعد الذي يجلس عليه، وعقد كفَّيه خلفها.

ظلَّ شاردًا حتى النخاع في تفكيرٍ عميقٍ، حيث إنّه لم يشعر بزوجته التي كانت تدنو مِن خلفه ببطءٍ، فأمسكتْ خدَّيه بكفيها برفقٍ وحنانٍ شديديْن، وما كادت تفعل حتى شعرتْ بانتفاضته، وما إنْ سمع صوتها الرقيق العذب الزاخر بالدفء والحنان، حتى أمسك كفَّيها برفقٍ وأخذ يداعبهما فلثمَهُما بقبلتيْن دافئتيْن، ثم نقلها أمامه فرأتْ وجهه الذي أطلَّ مِنه الإرهاق والتعب فشعرتْ بالإشفاق عليه، ثم قالت بحُبٍّ:

- ماذا هناك يا حبيبي؟

وجلستْ إلى جواره ثم أرخثْ رأسها على منكبه، فأخذ يداعب شعرها الناعم المسترسل، مغمغمًا:

- هناك الكثير يا حبيبتي، الكثير.

قالتْ بحنانٍ:

- شاركْني همومك.

ابتسم ابتسامةً شاحبةً قائلاً، بهدوءٍ وإرهاقٍ:

- إنها ليستْ همومٌ يا أغلى ما أملك، إنّه عملي، عملي الذي أحبه.

سألته:

- أهي هذه القضية الخاصّة ببيت الساحر وذلك المسخ المستنسخ.

تنهّد بعمقٍ وهزَّ رأسه إيجابًا، ثم قال:

- إنّه هو بالطبع، لكنَّ كلَّ الذي يشغلُني الآن هو ذلك الشخص الجديد الذي جعل يُقحِم نفسه في الأحداث فجأةً، وبأوامرَ مِن شخصٍ لن تتوقعي أبدًا مَن يكون.

اعتدلتْ في جلستها، وسألتْ باهتمامٍ شديدٍ:

- وماذا بشأنه؟ ومَن هو ذلك الشخص الآخر؟

أغمض عينيْه ثم هزَّ رأسه بعصبيةٍ، قائلاً:

- ذلك الآخر هو رئيس الجمهورية نفسه.

هتفتْ بدهشةٍ عارمةٍ:

- رئيس الجمهورية نفسه؟ وهل ترك الدولة المُلتهِبة بالثورة والقتل في كلِّ مكانٍ، وجعل أمرًا كهذا محور اهتمامه؟!

قلب كفيه قائلاً بحيرةٍ، مُتمتِمًا:

- لستُ أدري، حقًا لستُ أدري.

ثم نهض مِن مجلسه بغتةً، وهو يقول بحزمٍ صارمٍ:

- لكني لن أقبع في مكاني هكذا.

نهضت زوجته بدورها مُمسكةً بيده، قائلةً بقلقٍ:

- وما الذي تنوي فعله يا حسام؟ اللجان الشعبية تملأ الشوارع وأصبح بين رجال الشرطة والشعب ثأرٌ، ونزولك الآن إلى الشارع يعرِّضك للخطر، فإلى أين ستذهب؟

التفتَ إليها ثم قال بحسمٍ:

- سأذهب لمقابلة هذا الرجل مباشرةً، ولْيَكُنْ بعد ذلك ما يكون، أما عن اللجان الشعبية فمعي بطاقة هوية بمهنة أخرى بعيدًا عن مهنتي .. إنها لُعبتنا .

قالها ثم انصرف على الفور ولم تحاول حتى مُعارضته، لأنها على يقينٍ تامٍّ بأنّه لن يستجيب لها، فانهارتْ زوجته على أقرب مقعدٍ إليها، ودفنتْ رأسها بين يديها وهي تسأل نفسها سؤالاً واحدًا:

هل سيعود لها زوجها سالمًا ؟

حقًا، هل سيعود ؟

******

5-آخر الأشرار

بغتةً انتصبتْ تلك الدماء ثم تموّجتْ وتحوّلتْ إلى ذلك المسخ البشع الخِلْقة، الذي ابتسم لهما ابتسامةً شرسةً مُخيفةً، فأخذتْ رضوى تصرخ برعبٍ وقد شُلَّتْ حركتها تمامًا، وكأنما التصقتْ بالفراش، على حين أخذتْ حسناء تحدِّق في المسخ بذهولٍ، دون أنْ تُشيح بوجهها عنه، متسائلةً بحذرٍ:

- مَن أنتَ؟

وظلّت تلك الابتسامة على وجهه كما هي لا تَفيضُ ولا تَقلُّ، ثم ردَّد عبارتها بصوتٍ بدا وكأنه يأتي مِن أغوار جُبٍّ سحيقٍ:

- مَن أنتَ؟

وانطلق يضحك بصوتٍ رهيبٍ مخيفٍ ثم صمتَ بغتةً، ورمقها بنظرةٍ ناريةٍ، قائلاً بغضبٍ:

- أنا مَن تظنين أنكِ قضيتِ عليه.

هتفتْ بانفعالٍ جارفٍ:

- بل لقد قضيتُ عليكَ بالفعل. أنتَ شيءٌ آخر.

وعلى الرغم مِن بُعدِ المسافة بينها وبينه إلَّا أنَّ يده امتدَّتْ إليها وجذَبْتها مِن عنقها، رافعةً إياها عن الأرض رفعًا، وكاد وجهها يلتصق بوجهه، وهو يقول لها بغضبٍ:

- بل أنا هو، في كلِّ مرةٍ تسألين هذا السؤال وأجيب نفس الجواب.

وضغط على عنقها أكثر فاحتقن وجهها تمامًا وجعلتْ تسعل بشدةٍ، حتى كادت الدماء تقفز مِن وجهها، وهي تحاول باستماتةٍ التخلُّص مِن قبضته الفولاذية، على حين تابع هو بنفس الغضب، ونفس الصوت العميق:

- تأكَّدي مِن هذا بنفسك.

وأخذ يحرِّك وجهها يمينًا ويسارًا مُتابعًا بصوتٍ جَهْوَريٍّ:

- افحصيني جيدًا.

وقلَّل مِن ضغطه على عنقها عند شعوره باختناقها، مستدركًا بحنقٍ:

- هل تأكدتِ الآن؟

وبسرعةٍ وجرأةٍ انطلقتْ يدها نحو عينيه في محاولةٍ فاشلةٍ مِنها لفَقْئِهما، إلا أنَّ قبضته انطلقتْ هو الآخر بسرعةٍ خُرافيةٍ، وأمسك بمعصمها بقسوةٍ، فأخذتْ تتأوَّه بألمٍ، على حين ابتسم هو بسخريةٍ قائلاً:

- حقيرةٌ ومُخادِعةٌ.

وأفلتْ يدها مِن يده، وانطلقتْ قبضته كالقنبلة في وجهها، فشعرتْ وكأنَّ مِطرقةً هائلةً مِن الفولاذ أصابتْ أنفها الذي أخذ ينزف بغزارةٍ، ولولا قوَّة تحمُّلِها التي لا تعلم هي عنها شيئًا حتى الآن، بل ولا تعلم شيئًا عن قدراتها لسقطتْ فاقدة الوعي.

كلُّ هذا يحدث ورضوى تجلس على الفِراش ترتعد رعبًا، لا تَقْدِر على الحركة أو حتى الصراخ، الذي صار بالنسبة لها في هذا الوقت مَجهودًا خارقًا، بل تعتبره انتحارًا، خوفًا أنْ يلْفِت انتباه المسخ إليها، لذا فقد ظلَّتْ تُتابِع الموقف بصمتٍ، وحسناء تسأل بألمٍ:

- ماذا تريد مِنّي بالضبط؟

عاد يطلق ضحكةً عاليةً رهيبةً، ثم ألقى حسناء إلى الحائط المقابل بعنفٍ، فأمسكت بظهرها الذي شعرتْ به كأنه تحطَّم، على حين قال هو بهدوءٍ شرسٍ:

- أريد أنْ أجعلك تتمنَّيْن الموت نفسه فلا تجدينه.

ومِن مكانه امتدَّتْ يده إليها مرةً أخرى، وعادتْ تُمسِك بعنقها وتجذبها إليه، ودنا مِن وجهها كثيرًا، وهو يتابع بنفس الهدوء الشرس:

- ثم أقتلك.

انتبهتْ حسناء في تلك اللحظة إلى جُرحيْن غائريْن في عنقه، واستجمعتْ شجاعتها وقوّتها، وغرستْ أصابعها فيهما فصرخ المسخ بألمٍ مذعورًا، وعاد يُلقي بها إلى الحائط بعنفٍ، وبتلك العينيْن الطوليتيْن رمقها بنظراتٍ رهيبةٍ، مُخيفةٍ، ثم انهار كيانه كلُّه وتحوّل إلى ذلك الشلال مِن الدماء مرةً ثانية، وعاد يخرج مِن حيث أتى..

مِن تحت الستار الأسود..

وأخذت الدماء تذهب تدريجيًا ثم اختفى الستار فظهر مِن خلفه باب الغرفة موصدًا.

عندئذٍ فقط انهارت رضوى فاقدةً الوعي وكأنَّها كانتْ تنتظر انصرافه لتفعل هذا، فاستندتْ حسناء إلى الحائط مُحاوِلَة النهوض، وأسرعت إلى رضوى بجزعٍ، وأخذت تهزُّها بقوةٍ هاتفةً بلوعةٍ:

- رضوى! رضوى!!

وأحضرتْ زجاجة عطرٍ خاصَّتها، وجعلتْ بعضًا مِن رذاذها في مُحيّاها، فانتفض جسدها كلُّه دفعةً واحدةً، مُطلِقةً شهقةً عاليةً وعندما سمعتْ حسناء صوت طرقاتٍ على باب الغرفة، احتضنتْ رأس رضوى براحةٍ مُغمغِمةً:

- حمدًا لله، حمدًا لله.

ثم وضعتْ رأسها على الفِراش وهتفت بتوتُّرٍ:

- مَن بالخارج؟

وشعرتْ بالسكينة تعود إليها، عندما أتاها صوت والدها مِن الخارج فهتفتْ بلهفةٍ:

- أدخلْ يا أبي.

وَلَج والدها ومِن خَلفِه شقيقه إبراهيم، وما كادا يتبيَّنان الموقِف، حتى أسرع الأخير إلى ابنته بجزعٍ، وأخذ يهزُّها هاتفًا بكلِّ ما يجيش به صدره مِن خوفٍ على ابنته:

- ابنتي، رضوى، أفيقي يا حبيبتي.

وأفاقتْ رضوى بالفعل بعد عدَّة مُحاولاتٍ مِنهم ما بين تَربيتٍ على خدِّها ورشِّ بعض العطر في وجهها، وما كادتْ تفتح عينيها حتى أُجهِشتْ ببكاءٍ حارٍّ، وارْتَمَتْ بأحضان والدها الذي ضمَّها إلى صدره بحنوٍ عارمٍ، مُتمتِمًا:

- اطمئني يا حبيبتي، إني إلى جوارِك.

انتبهتْ حسناء في تلك اللحظة إلى الضمَّادات التي تلفُّ عنق والدها، فأشارتْ إليها بسبابتها، هاتفةً بتوتُّرٍ:

- ما هذا يا أبي؟

لوَّح لها بيده، قائلاً بانفعالٍ:

- دَعِيكِ مِن هذا الآن، وأخبريني بما حدث معكما.

صمتتْ برهةً، ثم تنهَّدتْ بعمقٍ قائلةً:

- ما حدث معنا أننا وجدنا بغتةً...

بترتْ عبارتها دفعةً واحدةً، ثم سألتْ والدها باهتمامٍ:

- أخبرني أولاً يا أبي، ألم تريا شيئًا يخرُج مِن تحت الباب؟

عقد والدها حاجبيْه بشدّةٍ وقلَّب كفَّيْه، مُتسائلاً بحَيْرةٍ:

- شيئًا مثلَ ماذا؟

تردَّدتْ برهةً، ثم قالت بحزمٍ:

- مثل بقعةِ دمٍ كبيرةٍ.

اتَّسعت عينا والدها عن آخرهما وكذلك شقيقه إبراهيم الذي جذبتْ تلك العبارة انتباهه على الرغم مِن انشغاله بابنته، لكنَّ هناك شيئًا آخر جعله يهتف بذهولٍ:

- أين الطفل؟؟

والتفتْ الجميع إليه، وقد تنبَّهوا إلى هذا الأمر الذي جعلهم جميعًا واجمين لا ينبسُّ أحدهم ببنت شفةٍ،

حيث إنه لا وجودَ لأيِّ جوابٍ بداخل أيٍّ مِنهم كي يجيب!

حقًا، أين ذهب الطفل؟؟

لقد اختفى تمامًا، وبلا أثرٍ.

******

كلُّ ما يمكن أنْ أصف به تلك الحالة التي سيطرتْ على الفتاتين ووالديهما بعد أنْ استمع كلٌّ مِنهم إلى الآخر هي الوجوم التامّ، والصمت المطبق..

فهل عاد نادر إلى الحياة مرةً أخرى؟

وبعد فترةٍ مِن الصمت غمغم إبراهيم:

- إذن فقد عاد هذا المسخ إلى الحياة ثانية؟

عادت حسناء إلى الصمت برهةً، ثم أجابتْ:

- لقد أصابت الرصاصة رأسه مباشرةً، وقد أثبتت كلُّ تقارير المستشفى موته هو ووالدته.

وقلَّبتْ كفَّيها مُستطرِدةً:

- هذا ما أكَّده الرائد حسام؟

عاد يسأل:

- وهل تثقين بالرائد حسام هذا؟

لوَّحتْ بيدها، ثم قالت بعصبيةٍ:

- وما مصلحة الرائد حسام بخداعي؟ بل ما مِن مصلحةٍ لأيٍّ بشرٍ على الإطلاق مِن التستُّر على مسخٍ كهذا، إنَّ أمه تبغض بني جنسها مِن البشر كلَّ البُغض، ولقد أُشرِب في قلبه بغضه لهم مِنها، لذا فلا صالح لأيٍّ إنسانٍ مهما بلغت شروره مِن وجود شيءٍ كهذا على قيد الحياة.

تمتمت رضوى:

- يا إلهي .. هل يوجد على وجه البسيطة شيئًا كهذا حقًا؟

أغمضتْ حسناء عينيها ثم تنهَّدت بعمقٍ، قائلةً بيأسٍ مريرٍ:

- لستُ أدري، إني لأعجز كلَّ العجز عن إماطة اللثام عمَّا نحن بصدده، بل أعجز حتى عن تصديقه.. لستُ أدري إنْ كان كلُّ ما نعيشه مجرد كابوسٍ بشعٍ أم أنَّ...

بترتْ عبارتها بسبب غصةٍ في حَلْقها، ثم أردفتْ بنفس المرارة:

- أم أنَّ كلَّ ما مرَّ بنا حقيقةٌ.. حقيقةٌ مرعبةٌ تهدِّد الجنس البشري بأكمله.

قال والدها بعصبيةٍ:

- يجب أنْ تذهبي إلى الرائد حسام هذا مرةً أخرى، وتخبريه بكلِّ ما حدث معنا.. يجب أنْ تَرَيْ جثة هذا المخلوق بنفسك.

ابتسمت ابتسامةً شاحبةً، مغمغمةً:

- لقد قلتُها مِن قبلُ يا أبي بأنني لن أتمكَّن مِن مقابلته أو مقابلة غيره مِن رجال الداخلية في ظلِّ الوضع الراهن الذي تعيشه مصر، حتى وإنْ تمكَّنتُ مِن هذا وأيقنتُ مِن وجود المسخ جثة هامدة فها هي ذي روحه اللعينة تهددنا بالموت في كل لحظة، فهل سيتمكَّن الرائد حسام مِن مساعدتنا؟ بل هل سيقتنع بما سأخبره به؟

لوَّح والدها بيده وهو يقول بانفعالٍ:

- الأمر أصبح فوق طاقتنا ويجب أنْ نجد مَن يساعدنا.

وازداد انفعاله وهو يتابع:

- ثم ما الذي سيمنعه مِن الاقتناع بما ستخبرينه به، لو أنه شخصٌ آخر جاهلٌ بالأمر أوافقك بهذا، لكنَّ الرائد حسام يعلم حقيقة مثل هذا الشيء فقد خاض ولو جزءًا مِن التجربة القاسية، فكيف به ألَّا يصدِّقك؟

قال إبراهيم:

- وكيف سيساعدكم الرائد حسام؟

صاح أحمد بعصبيةٍ:

- يساعدنا بأيِّ شيءٍ.

غمغم إبراهيم:

- إنَّ شيئًا كهذا لن يَردعه الرائد حسام، ولا ألفُ رجلٍ مثله.

وتلعثم قليلاً مِن فرط الارتباك، ثم كبح جِماح نفسِه وأردف بانفعالٍ:

- هذا الشيء مِن شِبْه المستحيل القضاء عليه ما دمتَ لا تعلم له نقاطَ ضعفٍ، فتلك التفاصيل التي أدْليتُم بها عنه تعني أنَّه سرابٌ مِن المستحيل الإمساك به أو ملاحقته، بل أظنُّه لا نقاطَ ضعفٍ له، على الأقل بالنسبة لإدراكنا.

وجعل يضرب كفًا بكفٍّ وهو يهزُّ رأسه بيأسٍ، في نفس اللحظة التي نهض فيها الجميع مِن أماكنهم بحركةٍ حادَّةٍ وهو قَبْلَهم، عندما ارتفع صوتُ طرقاتٍ عاليةٍ على باب المنزل..

طرقاتِ شخصٍ مُتعجِّلٍ لأقصى حدٍّ..

وخائفٍ لأقصى حدٍّ.

وببطءٍ وتوتُّرٍ اتَّجه اللواء أحمد نحو الباب ليفتحه، على حين تصلَّب الجميع في أماكنهم يترقَّبون رؤية الطارق بتوتُّرٍ، وما كاد الرجل يفتح الباب حتى دفعه شخصٌ قويُّ البنية بعنفٍ، على الرغم مِن كِبَر سِنّه، فأزاحه عن طريقه، ثم صفق الباب مِن خلفه وهو يصرخ بضراعةٍ:

- أغيثوني. أغيثوني.

كان على وجهه أشدُّ قسمات الرعب والفزع، ولقد صرخ بهاتين الكلمتين ثم انهار فاقدًا الوعي..

أو هكذا خُيِّل لهم.

******

وجد الرائد حسام صعوبةً شديدةً حتى تمكَّن مِن الوصول إلى ذلك المدعو بالجهة السيادية بسبب كثرة اللجان الشعبية في كلِّ مكانٍ، وكثرة انتشار اللصوص والبلطجية في الشوارع، لكنَّه في النهاية تمكَّن مِن مُقابلته التي شعر مِنها باستياءٍ شديدٍ، بل ولحاجةٍ في نفس يعقوب، ساوره الشكُّ في أنَّه رجلٌ غامضٌ يسعى وراء هذا الأمر إلى أغراضٍ غيرِ سويَّةٍ على الإطلاق، لذا فقد هيمن عليه شعورٌ بالقلق على رجاله، فخرج مِن مكتبه يحاول الاتصال بـحازم إلَّا أنَّ هاتفه قد فرغ شحنُه، فألقاه بعنفٍ على المقعد المجاور له في السيارة وانطلق بها إلى هناك يطوي الأرض طيًا إلى البيت الملعون..

بيت سلمان، فهناك بالتأكيد خطرٌ داهمٌ يهدِّد رجاله.

أخذتْ سيارته تتخبَّط في هذا الطريق غير المُمهَّد المؤدّي إلى بيت سلمان الساحر، وأخذ بعض الطين

يلطِّخ زجاج سيارته، ثم بدا وكأنَّ أحدهم قد غطَّى السماء مِن فوقه بستارٍ داكنٍ، ولولا الظلام الدامس لشعر بهذا، فانطلق هزيم الرعد مُدوِّيًا، ثم هطلت الأمطار بغزارةٍ، عندئذٍ تعطَّلت السيارة، فحاول عدَّة مراتٍ أنْ يُعيد تشغيلها إلا أنها أَبَتْ، الهاتف كذلك أبى أنْ يُتمَّ الاتصال برجاله، والطبيعة كشَّرتْ عن أنيابها، واشتدَّ المطر والريح مِمّا اضطره أنْ يظلَّ في السيارة حبيسًا لبعض الوقت يسيطر عليه حنقٌ عميقٌ، وبغضبٍ ظلَّ يضرب مقود السيارة؛ فهاهو ذا حبيسٌ يعجز عن الحركة داخل سيارته حتى إنه شرع يسأل نفسه: كيف يتحمَّل هؤلاء الذين يقضون سنواتٍ مِن عمرهم داخل السجون، على حين لا يُطيق هو الدقائق الخمسة سجينًا داخل سيارة!!، ولمّا ظلَّ المطر في ازديادٍ، فتح الباب وانطلق بإصرارٍ إلى هناك غير مبالٍ بأيٍّ شيءٍ، هكذا تعلَّم، وهكذا يجب أنْ يعمل.

لكن، ومِن بين الأشجار المجاورة للطريق، كان هناك مَن يراقبه، يسير معه خطوةً بخطوةٍ، زوجٌ مِن العيون حمراوان بلون الدم.

عينان طوليتان..

وكان مِن الواضح أنَّ رجاله ليسوا وحدهم في خطرٍ، هو أيضًا في خطرٍ رهيبٍ.

******

مضتْ ساعةٌ كاملةٌ، وذلك الغريب فاقد الوعي وهم يحاولون مرارًا وتكرارًا إفاقته ولم يخطر ببال أحدهم أنْ يستدعيَ طبيبًا على الرغم مِن أنَّ أحدَ جيرانهم طبيبٌ ماهرٌ.. ساعةٌ كاملةٌ وكلُّهم يحترَّقون فضولاً ولهفةً لمعرفة سرِّ هذا الرجل، وسادتْ حالةٌ مِن التوتُّر بينهم، حتى بدأ الرجل يتأوَّه ويفتح عينيه ببطءٍ، فانطلقوا إليه جميعًا فأحاطوا بالفِراش إحاطة السِّوار بالمعصم، ومالوا نحوه كأنَّهم سينقضّون عليه، فانتفض مِن رقاده واعتدل على الفِراش بحركةٍ حادَّةٍ، وأخذ يحدِّق فيهم بذعرٍ، ثم أنخرط بغتةً في بكاءٍ حارٍ جعلهم جميعا يشعرون بالشفقة نحوه فأسنده الرجلان، ثم ربَّت إبراهيم على ظهره بإشفاقٍ مُغمغمًا:

- اهدأ يا رجل، أنت في أمانٍ.

وجلبتْ له حسناء كوبًا مِن الماء رشف مِنه القليل، ثم انتقلوا إلى ردهة المنزل لمحادثته بعدما تحسَّنت حالته بعض الشيء، وبدأ والد حسناء بالحديث متسائلاً باهتمامٍ:

- مَن أنتَ يا رجل؟ مِمَّ تستغيث؟ ولِمَ بنا دون غيرنا؟

صمت الرجل برهةً أخذ خلالها يُجيل بصره فيهم، ثم أجاب قائلاً:

- لأنكم الوحيدون الذين تستطيعون مساعدتي.

نظروا جميعًا إلى بعضهم بعضًا بدهشةٍ وتساؤلٍ، على حين تابع الرجل:

- حقًا أنتم لا تعرفونني، لكنَّ خلاصي في أيديكم.

وأشار إلى حسناء التي عقدتْ حاجبيْها بشدَّةٍ، وهو يستدرك قائلاً:

- في يديكِ أنتِ بالذات.

انتابتهم دهشةٌ عارمةٌ، وتساءل والدها بتوترٍ:

- ولِمَ هي بالذات؟ ومِن أين تعرفها يا رجل؟

اعتصر الرجل عينيه اعتصارًا، ثم فرَّتْ مِن عينيه دمعتان دافئتان، تساءلوا عن سببهما في أنفسهم، في نفس اللحظة قال الرجل بصوتٍ مُتهدجٍ:

- سأخبركم بكلِّ شيءٍ.

وعاد يبلل جوفه ببعض الماء ثم شرع يسرد قصته قائلاً:

- أنا كاظم، أحد أصدقاء سلمان.

وما إنْ ذكر اسم سلمان حتى اشمأزَّت قلوبهم مِن ذلك الرجل، لمجرد أنَّه صديقٌ له فبكلِّ تأكيدٍ هو كخليله، فبصق إبراهيم عن يساره، وهو يقول بحنقٍ:

- لعنة الله على هذا الاسم وعلى صاحبه، لقد بغضتُ هذا الاسم وحامله دون حتى أنْ تقع عليه عيناي.

لم يعلِّق الرجل على عبارته وواصل قائلاً:

- كنا على علاقةٍ حميمةٍ به أنا وزاهر ومينا ورشدي وراغب، كنا نجتمع على كلِّ ما لا يتخيَّله عقل إنسانٍ مِن موبقاتٍ، وقد كان سلمان يمتِّعُنا كثيرًا بألعابه السحرية الشيطانية، بل وقد كان يعلِّمنا بعضًا منها، إلى أنْ بدأ مينا يلعب برأس سلمان.

تساءلت حسناء باهتمامٍ:

- كيف؟

أخذ كاظم يفرك كفيْه، ليبعث فيهما الدفء وهو ينفث بعض الهواء الدافئ فيهما، ثم أجاب:

- بدأ يزرع في رأسه فكرة زواج الجِنِّ بالإنس عن طريق السحر الأسود، وقد ظلَّ يُلِحُّ عليه حتى أقنعه بهذا، فكرَّسَ سلمان كلَّ قوى الشر وجَمَعَ كلَّ كُتُب السحر الأسود، بل وبدأ يصنع مِن التعويذات ما يشبه المعادلات المُعقَّدة كي يتمكَّن مِن الوصول إلى مبتغاه،

وقد كانت الخادمة هي ضحيته وفأر تجاربهم التي سيقومون بتنفيذ لعبتهم القذرة عليها.

هتف أحمد بازدراءٍ:

- أيُّها الأوغاد! لقد أجرمتم بحقِّ هذه المسكينة .. جُرمًا تستحقون عليه الإعدام.

وكأنَّ الإهانة غير مُوجَّهةٍ إليه، بل وكأنَّ أحمد لم ينبس ببنت شفةٍ، إذ تابع قائلاً دون حتى أنْ يلتفت إليه:

- مِن هنا بدأ الأمر يتحوَّل مِن مجرَّد لقاءٍ للترفيه إلى العبث بما لا طاقةَ لنا به، وبدلاً مِن أنْ يصنع سلمان تعويذةً لتحضير الجنِّ، ظهرتْ تلك الفجوة التي عَبَرَ بها هذا المخلوق البشع إلى عالمنا، قام بإيهامنا أنَّه مِن الجنِّ واستدرجهم حتى تمَّتْ عملية الاستنساخ، ولقد قررتُ أنا الانسحاب على الفور بمجرَّد إحساسي بالخطر، عندما تطور الموقف معهم وأصبح بهذه الخطورة ولم أواصل معهم هذه اللعبة القذرة.

قالت حسناء بسخريةٍ لا تخلو مِن سخطٍ:

- ولِمَ لَمْ تواصل ما دمتَ مثلهم؟ أم أنَّ قلبك الحنون قد أفاق قبل الأوان؟

رمقها الرجل بنظرةٍ جانبيةٍ لمْ تَرُقْ لها، وهو يجيب ضاغطًا حروف كلماته:

- لأني لستُ مثلهم.

وزفر زفرةً مُلتهبةً، ثم تابع:

- لقد أبيتُ أنْ اشترك معهم في هذه الجريمة، لأنَّ مبادئي وأخلاقي يمنعاني مِن هذا.

ضحك إبراهيم بتهكُّمٍ، ثم قال بسخريةٍ:

- ألمْ تمنعْك مبادئك وأخلاقك عن شرب الخمر؟

لوَّح الرجل بيده بضيقٍ شديدٍ، هاتفًا:

- دعونا فيما جئتكم مِن أجله.

وعاد يزفر بضيقٍ أشدّ، ثم استطرد قائلاً:

- انقطعتُ عنهم لكنني كنتُ أتابع بالهاتف مع الدكتور مينا كلَّ التفاصيل أولاً بأولٍ، حتى وقعت الفاجعة.

ونظر إلى أعلى وهو يهزُّ رأسه، قائلاً بمرارةٍ:

- علمتُ بما فعلوه مع الخادمة المسكينة سامية، وعلمتُ بأمر الجنين الذي وضعوه في رحمها عن طريق الاستنساخ، عندئذ انقطعتْ أخبارهم عني، حتى وافتني جميع أخبارهم مِن مصدرٍ أجهله أنا نفسي، كان يخبرني بكلِّ شيءٍ في المنام، حتى وأنا بكامل وعيي، صوته كان يتردد في أذنيّ، لم أره .. مجرَّد صوتٍ، حدَّثني عن تلك المذبحة الرهيبة التي حدثت في بيت سلمان، ولقد شعرتُ بفرحةٍ غامرةٍ أني فارقتهم في الوقت المناسب.

وظلَّ الرجل يشرح كلَّ شيءٍ بالتفصيل عمَّا حدث كأنه كان معها في الأحداث لحظةً بلحظةٍ، على حين شردت حسناء ببصرها، وأخذت تستعيد ذكرى هذه المذبحة الرهيبة ..

إنَّها تَذْكُر كلَّ شيءٍ عنها كأنها تحدُثُ الآن نصب عينيها..

تذكَّرتْ مصرع مينا وراغب، لكنها لا تذكر شيئًا عن نهاية زاهر ورشدي ولا سلمان، لقد رأتهم، تعاملتْ مع زاهر ورشدي، لكنها لا تَذْكُر ماذا أصابهم، لقد تبخَّر مِن عقلها كلُّ شيءٍ عن نهاية هؤلاء، وعن القبو الذي ألقتهم فيه سامية الخادمة..

تبخَّرت هذه الأحداث من عقلها تمامًا، اعتصرتْ عقلها اعتصارًا لكنْ بلا جدوى، حتى الرجل لم يتحدث عن تلك الأحداث أثناء حديثه معهم.

- حسناء.

أخرجتْها رضوى مِن شرودها فالتفتتْ إليها ببطءٍ، ثم يمَّمتْ مُحيّاها شطر الرجل، الذي ما زال يواصل حديثه، قائلاً:

- وبدأت المخاطر تُهدِّدُني.

وأشار إليهم بسبابته، وهو يتابع مُحذِّرًا:

- مثلما تُهدِّدُكم وتطاردكم، هكذا أخبرني صاحب الصوت المجهول.

التقى حاجبا حسناء هاتفةً:

- ماذا تعني؟

أجاب الرجل:

- أعني أنَّ ما يحدث معي يحدث معكم، ذلك المسخ يطاردني، يخرج لي مِن المرآة، يتحوَّل إلى بقعة دمٍ كبيرةٍ سرعان ما تتحوَّل إلى مسخٍ رهيبٍ بشعٍ، ولمَّا طلبتُ مِنه قتلي أخبرني أنه لا يريد هذا، بل سيجعلني أقضي عمري كلَّه أتمنى الموت مِن هول ما سيحدث معي.

وأشار إلى حسناء هذه المرة مُتابعًا:

- كما سيحدث معك، هذا إنْ كان لم يحدث بالفعل حتى الآن.

قالت حسناء في دهشة:

- لقد حدث معنا كل ما تتحدث عنه بالفعل بل وأكثر منه .

ابتسم الرجل ابتسامةً مريرةً، ثم هزَّ رأسه قائلاً:

- للأسف ذلك النصف الآخر أكثر خطورة مما قضيت عليه .

تصافح حاجباها وتساءلت بدهشة أشد:

- ماذا تعني؟

ظلت عينا كاظم متعلقة بها كأنما يبحث عن جواب، ثم أجاب بثقةٍ:

- أعني أنكِ قضيتِ على الجزء البشريّ مِنه.

لوّحتْ بيدها هاتفةً:

- أي هراء تقول يا رجل؟

هزَّ كاظم رأسه، مغمغمًا:

- الهراء الذي أتحدث عنه هو عين الحقيقة ولم أخفِ عنك حرفًا واحدًا منها .. والحقيقة التي يجب أن تثقين بها أيضًا أن ذلك المسخ عاد لينتقم مني ...

ورفع عينيه إليها، مستطردًا:

- ومنكِ.

وهَوَتْ هذه الكلمة على رأسها كالصاعقة..

بل كألفِ ألفِ صاعقةٍ.

******

مرةً أخرى يجتمع الرئيس برجل القوات المسلَّحة، وكعادته جلس هذا الأخير يفرد راحتيه على ركبتيه

خفيض الرأس، كم الذليل إنْ تكلّم خرجت الكلمات مِن فمه لا تكاد تسمعها إلا إذا أرهفتَ سمعك جيدًا، وكالمعتاد أيضًا وقف ابن الرئيس عن كثبٍ مِنه تلك الوقفة الأرستقراطية التي تنضح عظمةً وكبرياءً، أمّا الرئيس فقد جلس على مقعده أمام الرجل يصلح مِن شأن حُلّته، ثم وضع ساقًا فوق الأخرى وأسند رأسه على سبابته وإبهامه مُرسلاً بصره في الرجل بصمتٍ لا يغادر كآبةً، وحين طال صمته شمل الرئيس اعتقادٌ راسخٌ بأنّ هذا الأخير يغطُّ في نومٍ عميقٍ، فتنهّد بعمقٍ ثم قال بضجرٍ:

- طلبتَ مقابلتي والآن أراك صامتًا لا تتكلم.

غمغم بصوتٍ ناعمٍ كالأفعى:

- لقد ذهبتُ إلى الميدان بنفسي وقابلتُ بعض قياداته وتحدثتُ معهم.

وتنحنح بحرجٍ فاستحثّه ابن الرئيس، قائلاً بحنقٍ:

- وماذا وجدتَ؟ تكلّمْ على الفور.

عاد الرجل يتنحنح بحرجٍ، ثم تابع وهو يهزُّ رأسه بأسفٍ:

- لا أملَ يا سيادة الرئيس في مغادرة الجماهير مِن الميدان، فبعد الخطاب الذي ألقيتَه سيادتك هناك مَن غادره إشفاقًا...

قاطعه الرئيس باستنكارٍ:

- إشفاقًا؟؟

أجاب:

- بالطبع يا سيادة الرئيس، لكنْ بعد هجوم البلطجية ورجال الأمن عليهم بالخيول عادت إليه الناس مِن كلِّ مكانٍ في مصر وأقسموا ألَّا يتركوه إلّا إذا...

بتر عبارته عند هذا الحدِّ، فهتف به الرئيس بلهفةٍ:

- إلَّا إذا ماذا؟

عاد يجيب وهو ينظر في عيني الرئيس مباشرةً:

- إلَّا إذا تنحَّيْت عن منصبك.

وكأنما السقم قد شاع في وجهه، فانتفض مِن مكانه، وهو يلوِّح بيده صارخًا:

- مستحيلٌ، مستحيلٌ! أنا لن أتخلى عن منصبي ولو قضيت على الشعب بأسره.

ثم انهار فوق مقعده وتسارعت ضربات قلبه، فهرول إليه ابنه قائلاً بتوترٍ:

- اهدأ يا أبي، إنهم مجرد حشراتٍ سنسحقهم بأقدامنا.

دفن الرئيس رأسه بين يديه ثم رفعها ولقد راع ابنه تلك النظرة التي ضاع لمعانها والتي كانت تنطوي على الزهو دائمًا، سرعان ما تلاشت تلك النظرة، وحل محلها نظرة غضب، مغمغمًا:

- يظنون أنهم إنْ أقالوني مِن منصبي سيعيشون في رغدٍ مِن العيش؟! مساكين! لا يعلمون أنَّ روح فرعون رابضةٌ فوق عرش مصر تسكن كلَّ مَن ارتقاه ولو كان

أحد الزاهدين المؤمنين، فتحيد به عن كلِّ ما يؤمن به مِن مبادئَ وقيمٍ مهما كانت نبيلةً.

وألقى نظرةً متفحصةً إلى رجل القوات المسلحة، وسأله باهتمامٍ:

- ماذا عن حسناء يا رجل؟

أجاب بهدوءٍ وقد بدا وجهه منطلقًا بِبِشْرٍ وظفرٍ:

- إنها الآن بين شقَّيْ الرحى، اطمئنْ يا سيادة الرئيس، لقد أطبق الفخُّ فكّيْه عليها.

قال الرئيس ببشاشةٍ:

- أحقًا ما تقول يا رجل؟

ابتسم وقال بثقةٍ:

- نعم يا سيادة الرئيس، كلُّ شيءٍ سيسير على ما يرام وكما نخطط له.

انعقد حاجبا ابن الرئيس وضرب كفًا بكفٍ، وهو يقول بحنقٍ واستنكار:

- سيسير؟! أطلعتَ الغيب يا رجل؟، الرئيس يسألك عن خطواتٍ تمَّ تنفيذها لا غيبياتٍ.

تمتم بارتباكٍ:

- أؤكِّد لك يا سيدي أنَّ الخطة ستنجح.

تنهَّد الرئيس بعمقٍ ووضع ساقًا فوق الأخرى، ثم قال:

- وأنا أثق بك يا رجل وأثق في قدرتك على تنفيذ ما أردتُه منك، وعليك أنْ تثق بي أنت أيضًا، فلو نجحتَ فسوف تنال كلَّ ما تحلم به وأكثر .. أكثر بكثير.

ورقص قلب الرجل مِن فرط السعادة..

لكنْ هل سينجح؟

******

أسرع حازم وآسر يستترون تحت ذلك الكشك الخشبيّ المُجاوِر لهم مِن المطر الذي انهمر بغزارةٍ، وأخذا ينفثان الهواء الدافئ بأيديهما، وآسر يقول:

- متى سنستريح مِن هذا الهمّ؟

ابتسم حازم مغمغمًا:

- بزوال الأسباب يا رجل، لذا فلن نستريح أبدًا، لأنَّ الأسباب لن تزول بلا شكٍّ.

قال آسر مداعبًا:

- يا لك مِن متفائلٍ بشوشٍ، لستُ أدري كيف جعلوك قائدًا علينا.

وأطلق ضحكةً قصيرةً، مردفًا:

- إنك لتبعث الإحباط في النفوس.

ربَّتَ على ظهره بعنفٍ، قائلاً في حنقٍ:

- تركناها لك أيها الهُمام، فأرنا ما يمكنك فعله .. أرنا كيف تزرع روح البطولة في قلوب الرجال يا صانع الرجال؟

شعر آسر بشدة حنقه، لذا فقد رفع حاجبيه وقلب كفيه، قائلاً بحرجٍ:

- إني أداعبك يا رجل، فلمَ تتعامل معي بهذا العنف؟

شعر حازم بالحرج هو أيضًا، لذا فقد تلعثم لحظةً ثم قال:

- معذرةً يا آسر، لكنْ هناك شعورٌ بداخليٍّ يقول لي إنَّ هذه هي آخر مهمةٍ لنا.. ستكون نهاية المطاف.. إحساس لا يفارقني بأننا في مأزقٍ.

وصمت آسر وتجهَّم وجهه تمامًا فهو أيضًا يراوده هذا الإحساس، حتى الرجال الأربعة الآخرين كلهم يجتاحهم نفس الشعور بلا استثناءٍ.

وظلَّ آسر وحازم ينظران إلى بعضهما بعضًا بصمتٍ، إلى أنْ قال الثاني مُحاوِلاً الخروج مِن تلك الحالة مِن التوتر التي اجتاحتهما:

- ألا تحتاج إلى قدحٍ مِن الشاي؟

وكأنه كان ينتظر أن يخوض صاحبه في حديث آخر يخرجه مِن ذلك الإحساس المقيت الذي ينتابه، إذ أجاب على الفور:

- بالطبع يا حازم، إني أتوق إليه أكثر مِن رؤيتي لأهلي.

ابتسم حازم قائلاً:

- يا لك مِن أصيلٍ! أصيلٍ بحقٍّ.

لوَّح بيده قائلاً:

- دعْكَ مني ومارسْ مهنتك كقائدٍ للمجموعة واتَّصلْ بأحدهم ليُعِدَّ لنا الشاي ويجلبه إلينا، فلستُ متأهبًا

للخروج مِن هذا المكان قبل نهاية المطر، حتى وإنْ ظللت فيه حتى مطلع الصيف.

مدَّ حازم يده يلتقط جهاز الاتصال، في نفس اللحظة التي سمع فيها رنين هاتفه الخلوي، فتناوله مِن جيبه، والتقى حاجباه بشدةٍ، وهو يقول بتوترٍ:

- تُرى ماذا هناك يا سيادة الرائد؟

ورفع الهاتف قائلاً:

- تحت أمرك يا سيدي.

أتاه صوت الرائد حسام مِن الجانب الآخر خاوٍ مِن أيِّ انفعالٍ، فقط أوامرُ مقتضبةٌ، أسلوبٌ لم يَعْتَدْه مِنه، إلا أنه لم يكن عليه سوى الطاعة فقط.

وانعقد حاجبا الرجل بشدةٍ بعد الانتهاء مِن المكالمة، ثم أعاد هاتفه إلى جيبه، فسأله آسر بتوترٍ:

- ماذا هناك؟

أجابه بشرودٍ:

- الرائد حسام.

سأل باهتمامٍ:

- ماذا يريد؟

التفتَ إليه قائلاً بتوترٍ:

- إنه يريدنا أنْ نبدأ الآن.

ابتسم آسر ابتسامةً خرجتْ على الرغم مِنه شاحبةً قلقةً، مغمغمًا:

- وماذا في ذلك ؟

أجاب:

- أسلوب الرائد حسام لم يَرُقْ لي أبدًا.

لوح آسر بيده قائلاً:

- هذا شأنه.

هزَّ حازم رأسه، قائلاً بشرودٍ:

- نعم، هذا شأنه.

ثم تابع بعصبيةٍ:

- لكنَّ أسلوبه لم يَرُقْ لي، بل لا شيء هنا يَرُق لي .. لا اختيار ستة رجال يحملون فصيلة دمٍ واحدةٍ، ولا تلك الجهة السيادية المزعومة، ولا أيَّ شيءٍ ها هنا، وهذا شأني أنا.

اتَّسعت عينا آسر، وابتسم هاتفًا:

- كفى يا رجل، لئلا تصيبنا لعنتك.

أمسك حازم بجهاز الاتصال، وما هي إلا دقائقٌ حتى كان الرجال الستة جميعًا داخل بيت سلمان الساحر، وبعد بحثٍ دقيقٍ وفحصٍ أدقَّ راودهم إحساسٌ بالأمان حين فشلوا في العثور على شيءٍ هم أنفسهم

يجهلونه، حتى توصلوا أخيرًا إلى زرٍّ خفيٍّ في المطبخ..

شيءٌ ما يثير الانتباه إليه مثلما حدث مع الرجلين اللذين سبقاهم إليه عند ظهور خيط الدخان، لكنْ في هذه المرة لم يظهر الدخان..

في هذه المرة هناك مَن يتحكَّم فيهم للفت انتباههم لهذا الزرِّ..

وبلا إرادةٍ مِن أحد الرجال، امتدَّتْ يده إلى الزرِّ بآليةٍ ثم ضغطه، وظهرتْ تلك السلالم التي تمتدُّ إلى أسفل، ولقد بدا القبو شديد الظلمة إلا من بعض الضوء يتسلل في أوله، لذا فقد أضاء حازم مصباحًا يدويًا وانحنى إلى أسفل، وأخذ يفحص المكان بعينيه وقلبه يخفق بعنفٍ، ثم قال بارتباكٍ واضحٍ:

- لا يوجد أيُّ شيءٍ في الأسفل، لكنْ يجب أنْ نهبط.

وأخرج هاتفه وهو يستطرد:

- لكنْ قبل أنْ نهبط يجب أنْ نخبر الرائد حسام بأمر هذا القبو.

وأخذ يحاول الاتصال به، إلا أنَّ هاتفه كان مغلقًا، لذا فقد ارتفع حاجبا الرجل بشدةٍ، وهو يقول في دهشةٍ:

- الهاتف مغلقٌ!

ثم التفت إلى آسر مغمغمًا:

- كيف اتَّصلَ بنا إذن؟ وكيف يغلق هاتفه في لحظة مهمة كهذه؟ أم أنهم قد عادوا لقطع الإتصالات مرة أخرى؟

أجابه آسر على الفور:

- ربما يكون قد نفد شحنه.

مطَّ حازم شفتيه متمتمًا:

- ربما.

وسمعوا صوت الباب الخارجيّ يُغلق بعنفٍ، فانتفضت أجسادهم، وهمُّوا بالهرولة نحوه، لولا أنْ سمعوا صوتًا آخر يأتي مِن الأسفل.. مِن القبو..

كان مخيفًا كصوت كألف فأرٍ غاضبٍ .. كان يرتفع تدريجيًا ويقترب منهم في سرعة ..

ثم بدأ حفل الدم..

6-القرار الصعب

- الدم؟؟!

هتفت حسناء بالكلمة بذهولٍ، فأجابها كاظم بحزمٍ:

- أجل يا سيدتي الدم.. دمك.

التقى حاجباها بشدةٍ ولزمت الصمت برهةً، ثم قالت:

- ولمَ دَمِي؟

أجاب بنفس الحزم:

- دمك هو الشيء الوحيد الذي يمكِّننا مِن القضاء على هذا المسخ، حين تمتزج دماؤك بدمائه سوف ينتهي أمره إلى الأبد ولن يعود مرةً أخرى و...

بتر عبارته عند هذا الحدِّ فسألت بفضولٍ:

- وماذا ؟

أجاب:

- وننقذ الجميع مِن شروره، إنه خطرٌ رهيبٌ على مصر بأسرها إنْ اكتملت قواه.. إنَّ هذا المسخ يعتنق اليهودية وحليفه المُبجَّل هو إسرائيل، ولْتَعلمي أنَّ أهم أهدافه هو إفشال الثورة، لأنَّ النظام الحالي حليفٌ لها، لكنْ حتى وإنْ فشل فسيظلُّ يجاهد مِن أجل إسقاط مصر ولن يعجز عن هذا، لذا علينا أنْ ننتهي مِن أمره في عجالةٍ فكلُّ ساعةٍ تمرُّ يزداد قوةً وعزيمةً، ولو خسرنا مزيدًا مِن الوقت فلن يقدر عليه أحدٌ.

ثم نهض بغتةً متابعًا:

- وسوف أشرح لك باقي التفاصيل هناك.

سألته بحيرةٍ:

- أين؟

أجاب:

- في بيت سلمان.

اتسعت عيناها عن آخرهما، ولم يحاول أحدٌ مِن الآخرين التدخُّل في هذا الحوار، فقط جعلوا يتابعون بصمتٍ وشغفٍ فاغري الأفواه، على حين هتفت حسناء بانفعالٍ:

- وما الذي سيجعلنا نذهب إلى هناك؟

عاد الرجل يجيب:

- لأنه لن يتمَّ هذا إلا في نفس المكان الذي لقي فيه نصفه البشريّ مصرعه.

غرقت في التفكير أكثر مِن دقيقةٍ، ولقد كان الشيء الوحيد الذي ساد المكان خلالها هو الصمت المطبق، ثم لوَّحت بيدها هاتفةً بعصبيةٍ شديدةٍ:

- ومن أين ستجلبه؟وهل سيستسلم لنا حتى تقوم بمزج دمي بدماءه لنقضي عليه؟ إنها...

قاطعها بإشارةٍ مِن يده، قائلاً:

- قلتُ لكِ سأخبركِ بكلِّ شيءٍ هناك.

صمتتْ برهةً أخرى، ثم قالت بشكٍّ:

- وما الذي سيجبرني على الذهاب معك؟ بل ما الذي يجبرني على تصديق حرفٍ واحدٍ مِمّا تقول؟

قال بخبثٍ:

- وما الذي لا يُجبِرُك على هذا؟

ثم أشار إليها بسبابته، قائلاً بصرامةٍ:

- اسمعي، أنا وأنتِ في خطرٍ رهيبٍ، ومُعرَّضان للقتل في أيِّ وقتٍ، وعدوُّنا واحدٌ، والحكمة تقول عدو عدوي صديقي، وأنا لا أكن لك أي عداء، لذا يجب أنْ نشدَّ مِن أَزْرِ بعضنا كي يُمكِنُنا هزيمة هذا المسخ، وليس هناك وسيلةٌ سوى ذهابك معي إلى هناك، وتنفيذ ما سأخبرك أنا به بالحرف الواحد، ولن يُجدِي معه أيُّ سلاحٍ آخر،

حتى ولو كان كتيبةً كاملةً مِن أعتى الرجال بعُدَّتِهم وعددهم، ولا أظن أنَّ لديك خيارًا آخر.

وتحوَّلتْ لهجته إلى الخبث وهو يستطرد:

- وإنْ كنتِ لا تخافين على نفسك، فلْتخافي على هؤلاء أيضًا ولا تكوني أنانيةً.

وأشار إلى والدها وعمِّها ورضوى الذين غلَّفهم خوفٌ عاصفٌ، وخاصةً بعد ما مرُّوا به في الساعات القلائل الماضية لكنَّ أحدهم لم يتدخَّل والرجل يتابع:

- الأمر لا يحتاج إلى كلِّ هذا التفكير، يجب أنْ تتخذي قرارك على الفور فليس هناك حتى الوقت للتفكير، فكلُّ ثانيةٍ تمرُّ قد تحمل الكثير والكثير مِن المخاطر والأهوال، لذا يجب أنْ نستغل كلَّ لحظةٍ وكلَّ ثانيةٍ مِن الآن فصاعدًا، حتى نتمكَّن مِن القضاء على ذلك المستنسخ الرهيب، واعلمي جيدًا أنه لا بديل عن ذلك.

ولم تحِرْ حسناء جوابًا.

ما الذي يحدث معها؟ ما الذي تفعله الأيام بها؟ تفقد ذاكرتها في ظروفٍ غامضةٍ، مسخٌ رهيبٌ يسعى بكلِّ ما أوتي مِن قوةٍ لقهرها وأهلها، والآن هي في حيرةٍ مِن أمرها، رجلٌ لا تعرفه يريد أنْ يعيدها إلى بيتٍ ملعونٍ عاشت فيه أشدَّ لحظات حياتها رعبًا.

قطع كاظم حبل أفكارها قائلاً:

- قلت لكِ، ليس هناك متسعٌ مِن الوقت للتفكير.

وكان عليها أنْ تتخذ القرار بسرعةٍ على الرغم مِن أنَّ عقلها يعجز عن استيعاب كلِّ ما يقوله هذا الرجل، أبدًا لا تستوعبه وتشعر بالشكِّ فيه وفيما يقول، لكنْ ليس أمامها سوى أنْ تصدِّقه وتتخذ القرار أيًا كانت نتائجه، ولقد حسمت أمرها على الفور فقالت بصرامةٍ:

- سأذهب معك.

تهلَّلت أسارير الرجل لكنه حاول أنْ يخفي هذا، أمَّا الآخرون فقد نظروا إليها بذعرٍ غير مصدِّقين لما تقول، فهتف والدها بتوترٍ:

- كيف ستذهبين مع رجلٍ لا تعرفينه، وفي ظلِّ تلك الظروف الحرجة التي تسود مصر، فمجرد نزولك إلى الشارع فيه خطرٌ على حياتك، لن...

قاطعته حسناء بحسمٍ:

- لا تقلق يا أبي، فليس لديَّ خيارٌ آخر، والأمر كما ترى فمِن الخطأ بل والخطر ألا أذهب معه، ربما ننتهي مِن هذا الكابوس إلى الأبد.

وتهدَّج صوتها وتحوَّل إلى المرارة، وهي تستدرك قائلةً بصوتٍ أبحٍّ:

- ثم ماذا سيحدث أكثر مِمّا حدث معي؟ يبدو أنني لن أهنأ يومًا ما.

ولم يعلِّق أحدهم، صمتوا فاستدارت حسناء قائلةً بحزمٍ:

- هيا بنا.

وخرج الرجل وهي مِن خلفه، وما كادتْ تخطو خطوةً واحدةً إلى الخارج، وقبل أنْ تغلق الباب توقَّفت بغتةً ثم جالت بفكرها لمحةٌ، وبرقت عيناها بشدةٍ فهتفت بالرجل فجأةً:

- انتظرْ لحظةً.

وولجت المنزل مرةً أخرى، على حين توقَّف الرجل مندهشًا يبدو شديد العصبية وخاصةً حينما تغيَّبت لبعض الوقت، ثم ازدادتْ عصبيته أكثر عندما ألحَّ والدها على الذهاب معهما لولا أنْ رفضت هي هذا تمامًا مُحاوِلةً طمأنته وتهدئته، ثم غادرت مع الرجل، وما كادتْ تغلق الباب خلفها حتى خفق قلب الجميع بعنفٍ، على حين انخرط والدها في بكاءٍ حارٍّ، وخاصةً حينما هتف به شقيقه إبراهيم بعصبيةٍ:

- لماذا تأبى ذهابها معه؟ لو أنها ابنتك حقًا ما...

رفع الرجل عينيه الدامعتين مقاطعًا إياه بمرارةٍ:

- صهْ يا إبراهيم، أكثر مِن مرةٍ وأنا أخبرك ألا تتفوه بهذا الأمر.

اتسعت عينا رضوى عن آخرهما هاتفةً بذهولٍ:

_ أوليستْ حسناء ابنتك؟

التفتَ إليها متمتمًا:

- كلا يا رضوى، حسناء ليست ابنتي ولا تمتُّ لي بصلةٍ، ولكنها تربَّتْ في أحضاني فصارت كابنتي، فأنا عاجزٌ عن الإنجاب، لذا ربيتها وتعلَّقت بها أكثر مِن أيِّ شيءٍ في هذه الحياة.

لوَّح إبراهيم بيده هاتفًا:

- لكنها الآن تمثِّل خطرًا على حياتنا جميعًا، وجودها معنا يعرِّضنا للموت.

قال بصوتٍ متهدجٍ:

- أنا مَن وضعها في كلِّ هذه المخاطر، أنا مَن درَّبتُها وعلَّمتُها لتكون في خدمة بلدها فجعلت منها مقاتلةً لا يشقُّ لها غبارٌ، لولا أنا ما كانت هي عليه الآن مِن خطرٍ.

صاح به شقيقه:

- ولقد حان الوقت لتنهي علاقتك بها، سوف...

قاطعته ابنته هذه المرة:

- كيف تقول هذا يا أبي؟ حسناء حتى وإنْ لم تكن ابنته فهي لا تستحقُّ مِنه هذا.. إنها أكثر مَن مسَّ احترامي لها شغاف قلبي في هذه الحياة.. إنها مثالٌ يُحتذى به في هذه الدنيا، ليس لها ذنبٌ حتى نتخلى عنها في مثل هذه الظروف.

أشاح عنها بوجهه كأنه لا يكترث لكلامها، فتوجَّهت بالحديث إلى اللواء أحمد متسائلةً:

- لكن كيف هذا يا عمي؟ ولم أخفيتَ عنا هذا طوال هذه السنوات؟

انهالت عليه بوابل مِن الأسئلة فتنهَّد بعمقٍ ثم أجاب:

- إنها قصةٌ طويلةٌ عانيتُ كي أنساها لكنْ هاهو ذا والدك يعيد إليَّ ذكراها بكلِّ ما فيها مِن آلامٍ كادت تصبح طيَّ النسيان.

وخفض رأسه برهةً ثم جعل يسرد لها قصته مع حسناء، وكم كانت مؤلمة بحقٍّ!

******

وضعتْ والدة حسناء يدها فوق جبهة هذه الأخيرة برفقٍ تتبيَّن حرارتها، فوجدتها ملائمةً بعض الشيء بعد يومٍ قاسٍ عانت فيه مِن بعض إنفلونزا الصيف المُملَّة، ثم انحنتْ نحوها فقبَّلت جبينها قائلةً بحنانٍ:

- شفاك الله وعافاك يا حبيبتي، لقد تحسَّنتْ حالتك كثيرًا عن الظهيرة.

التقطتْ حسناء يدها ولثمتها بقبلةٍ بريئةٍ، وهي ترسم على وجهها ابتسامةً شاحبةً مِن شدة الإعياء، مُغمغمةً:

- حفظك الله يا أماه، أعتذر لك فقد أرهقتك كثيرًا.

وضعتْ أمها سبابتها على شفتيها برفقٍ، قائلةً بصوتٍ مفعمٍ بالدفء:

- إياك أنْ تقولي هذا ثانيةً، أنتِ ابنتي الوحيدة وأعزُّ إنسانةٍ إلى قلبي.

عادت حسناء تلتقط يدها وتقبِّلها ثانيةً، فربَّتت أمها على خدِّها، مستدركةً:

- سأترك باب غرفتي وغرفتك مفتوحيْن، فإنْ احتجت لأيِّ شيءٍ فناديني وحسب، لن ألوذ للنوم، فوالدك يصرُّ أنْ يصدِّع رأس أمك كلَّ ليلةٍ مِن كثرة الكلام عن بطولاته أثناء عمله.

عادت تلك الابتسامة الشاحبة تنبسط على أساريرها، فبادلتها أمها إياها مغمغمةً:

- تصبحين على خير.

وانصرفتْ إلى الغرفة الأخرى حيث كان يقبع فيها زوجها اللواء أحمد على فِراشه، وما إنْ ولجت حتى اعتدل وسألها باهتمامٍ:

- كيف حالها الآن؟

أجابت:

- أفضل مِن الظهيرة بكثيرٍ، انخفضت حرارتها كثيرًا عمّا كانت عليه، وهدأ السعال بعض الشيء.

تنهّد بعمقٍ ثم فرد جسده على الفِراش شابكًا يديه فوق صدره، قائلاً:

- كم كنتُ أشعر بالقلق عليها، فقد صار لها مكانةُ الابنة الحقيقية في داخلي، بل لو أنّ لي ابنةٌ أعتقد أنني ما كنت أحببتها مثل حسناء.

طفقت زوجته تضرب شفتيها بيدها، هامسةً:

- اغضض مِن صوتك لئلا تسمعنا يا أحمد، لو علمتْ بهذا الأمر لفقدناها إلى الأبد.

لوح لها بيده ثم قال بصوتٍ يقطر مرارةً:

- لو أنها علمتْ هذا فلا أعتقد أنَّ هذا سينقص مِن قدرنا شيئًا حيالها، وأخشى ما أخشاه أنْ تعلم أنني قتلت والدها.

قالت بصوتٍ خفيضٍ وحذر:

- احذرْ مِن هذا الكلام يا رجل ولا تكرِّرْه مرةً أخرى، أنتَ لم تكن تقصد قتله ولقد كفَّرتَ عن هذا بتربيتك لابنته، وها هي ذي صارت شابةً في ربيع عمرها، ربيتها فأحسنت ولقد مَنَّ الله علينا بها بعد أنْ عجزنا بكلِّ السُّبل عن الإنجاب فعوضْتَها عمّا فعلتَ، وعوضَتْنا عمّا ينقُصُنا.

والتقطتْ جهاز التحكم عن بعدٍ، وقامت بتشغيل جهاز التكييف لتلطيف حرارة الغرفة، ومِن فوق المِشجب التقطت منشفةً شرعت تجفِّف بها عرقها، على حين

اعتدل هو على جانبه الأيمن موليًا بهذا إياها ظهره، قائلاً:

- لا تقلقي فلن تسمعنا، فهي الآن تغطُّ في سباتٍ عميقٍ مِن شدة التعب، حتى وإنْ ظلَّت مستيقظةً فأظنها لا تقدر على التحرك بمفردها، فهي بحاجةٍ إلى مَن يساعدها.

انتظرَ أنْ تلحق به إلى الفراش لكنها لم تفعل، ناداها أكثر مِن مرةٍ لكنه لم يتلقَّ منها أي ردٍّ، فتنازعته الحيرة والتفت إلى الخلف، وحين فعل شحب وجهه مِن أثر الصدمة ..

لقد وجد زوجته ماثلةً كتمثالٍ مِن الرخام تحدِّق بباب الغرفة المفتوح بجزعٍ، تنظر إليه بصمتٍ مريرٍ؛ فهناك، وأمام الباب مباشرةً، كانت تقف حسناء وقد سالت العَبَرات على وجنتيها مُتسارعةً..

دموعٌ دافئةٌ وقلبٌ يتمزَّق حزنًا مِمّا سمعته، وتجمَّد المشهد هكذا تمامًا لمدة دقيقةٍ كاملةٍ، لم ينبس أحدهم

ببنت شفةٍ، فقط القلوب تخفق بمنتهى العنف.

وتلعثمت زوجة اللواء أحمد مُحاوِلةً خداع نفسها أنَّ حسناء لم تسمع شيئًا مِمّا دار بينهما، فأشارت لها بالدخول قائلةً:

- أدخلي يا حبيبتي، كيف حا...

قاطعتها بإشارةٍ مِن يدها قائلةً بصوتٍ يقطر حزنًا:

- لقد سمعتُ كلَّ شيءٍ.

وانتفض الرجل وزوجته بقوةٍ.

******

- يا إلهي، يا إلهي!

خرجتْ تلك العبارة مِن بين شفتي رضوى، التي جعلتْ تكرِّرُها لمراتٍ ومراتٍ حين انتهى اللواء أحمد مِن سرد تلك القصة المؤلمة عن حسناء، أمَّا والدها فقد تغضَّنتْ جبهته وهتف بارتياعٍ:

- أنتَ قتلتَ والدها؟

طفق يزيغ ببصره عنهما تجنُّبًا لوقوع عينيْه على أعينهما، حتى خُيِّل إليهما للحظةٍ أنه سينهار أمامهما فيصبح أنقاضًا، ولقد خرجت الكلمات مِن بين شفيه كالهمس وهو يقول بمرارةٍ:

- نعم، لكنني لم أقتله عن قصد، إنها الأوامر المُجحفة التي أجبرتني على تعذيبه حتى أصابه الوهن، وحين شعرتُ بالذنب طلبتُ مِنهم توقيع الكشف الطبيّ عليه.

وأطبق جفنيْه فانحدرت مِنهما دمعتان لامعتان ساخنتان كأنهما الحمم على وجهه، وطواه حزنٌ وأسًى يفوقان الحدَّ وجعل يهزُّ رأسه متمتمًا:

- أقسم لكما أنني حاولت معهم قدر المستطاع لكنْ فشلتُ، لم أكن أقصد قتله.

أخذ شقيقه يربِّت على منكبه مُشفقًا، أمّا رضوى فقد أُجهِشت على حين بغتةٍ في بكاءٍ حارٍّ على حظِّ حسناء العاثر التي أحست يومًا من الأيام بأنها لا تقل مكانةً

عن أختها، على حين عاد اللواء أحمد يتمتم بحزنٍ أشدّ:

- حين علمتْ حسناء بتلك الحقيقة المُرَّة عزمتْ على مغادرة البيت، وحين أخبرتُها بأنها أعزُّ عندي مِن أبنائي إنْ قدَّر الله وأصبح لي ولدٌ، لكنها أَبَتْ وتركت المنزل لكنْ حين طلبتُ مِنها مساعدتنا في إحدى المهام في قلب إسرائيل لم ترفضها، ولقد فقدت الذاكرة هناك بعد أنْ أتمَّتها بنجاحٍ ساحقٍ، لم تتأخر عن أداء واجبها نحو وطنها حين طلبتُ هذا منها على الرغم مِن كوني قاتل والدها.

مسحت رضوى دموعها المنهمرة ثم قالت بمرارةٍ:

- لستُ أدري يا عمي كيف تستطيعون قتل الناس هكذا بدمٍ باردٍ!

اتَّسعت عينا عمها ذهولاً غير مُصدقٍ لِمَا تفوَّهت به مِن كلماتٍ، هي أشدُّ مِن الرصاصة في صدره المكلوم لِمَا قد سلف، لكنْ احتبست الكلمات في حلْقِه وغصةٌ مِن

الألم والحزن تمزِّقان قلبه تمزيقًا، لم تكن تعلم أنه منذ فعل هذا وهو يجلد نفسه جراء ما اقترفت يداه، ونظر والدها إليها نظرةً تقطر عتابًا مُفرِطًا فتنحنحت بحرجٍ مغمغمةً:

- معذرةً يا عمي، لكنَّ حزني على حسناء تملَّكني فما استطعت كبح جماح لساني.

ظلَّ عمها خفيض الرأس يتحاشى مُجابهتهما، فقال شقيقه:

- معذرةً يا أحمد، إنها لم تكنْ تقصد شيئًا، إنها فقط...

وقاطعه بإشارةٍ مِن يده، فأطرق صامتًا وعاد ينظر إلى ابنته تلك النظرة العاتبة، لكنها لم تعتذر مرةً أخرى بل ولن تعتذر فهي لم تأسف على ما قالت أبدًا.

******

جلستْ إلى جواره في السيارة صامتةً شاردةً قلقةً، يرسم ذهنها اللحظات المقبلة متفتِّقًا عن أوهامٍ

وكوابيسَ لا حصر لها، لو أنَّ إنسانًا آخر جال بفكره ما يتفتَّق عنه خيالها الآن لولّى الأدبار، وقبع في بيته ينتظر مصيره الذي أقلُّ ما يقال عنه إنه أسود، لكنها تمتلك قلبًا فولاذيًا لا يخشى إلا الله.

كان هذا هو حالها، أمَّا هو فقد كان كاظم يختلس النظر إليها بين الحين والآخر بخبثٍ، كأنما يخشى أنْ تنتبه إليه، لم يكن يعلم أنها كانت تشعر به في كلِّ مرةٍ يفعل هذا، لكنها لم تكن تكترث له، كلُّ ما كان يشغل بالها في هذه اللحظات هو خوفها مِن المواجهة المُقبِلة، التي تجهل كيف ستكون عواقبها تمامًا، على عكس الرجل الذي بدا ساكنًا هادئًا كأنَّه يصطحب معه فتاةً جميلةً إلى رحلةٍ في متنزهٍ ما، لو رأيتَ حاله الآن ما تخيلْتَ لحظةً ما كان عليه مِن حالٍ يُرثى له حين ظهر، أمَّا الآن فهو هادئٌ مطمئنٌ.

زفرتْ حسناء بضيقٍ، ثم قالت دون أنْ تلتفت إليه:

- ألن تكفَّ عن اختلاس النظر إليَّ كاللصوص هكذا؟

ابتسم ابتسامةً صفراءَ، وقال هو أيضًا دون أنْ يلتفت إليها:

- هل لاحظتِ هذا؟

عادت تقول بضيقٍ:

- منذ ركبنا السيارة.

التفتَ إليها قائلاً بخبثٍ:

- معذرةً سيدتي، فجمالك...

قاطعته بهدوءٍ شرسٍ:

- عيبٌ على ذلك الشيب الذي يغطّي جُلَّ شَعْرِك أيها العجوز الأخرق، انظر أمامك وكُفَّ عن هذا السخف وإلّا...

وضمَّتْ قبضتها بقوةٍ، مُستطردةً بغضبٍ:

- وإلّا هشَّمتُ أنفك المُدبَّب هذا بلَكْمةٍ ساحقةٍ وأسقطتْ صفًا مِن أسنانك البالية.

لوَّح بيده وهو يضحك قائلاً:

- معذرةً، لم أكن أعلم أنك بهذه القسوة، لكنْ في المرة القادمة سوف...

قاطعته بحنقٍ:

- أيَّة مرةٍ قادمةٍ يا رجل! هل تعتقد أننا سنصبح أصدقاء؟

عاد يلتفت إليها مغمغمًا:

- ربما بعد أنْ نقضي على نادر.

عادت تقاطعه قائلةً بجدِّيةٍ:

- هل تظن أنَّ هذا سيفلح معه؟

أجاب بثقةٍ:

- بالطبع، أثق بهذا كما أثق بوجودك الآن إلى جواري.

نظرتْ إليه بضيقٍ ثم قالت بحنقٍ:

- ومِن أين لك بهذا اليقين؟ بل مَن أخبرك بتلك الوسيلة للقضاء عليه؟

لوَّح بيده قائلاً بسخطٍ، بعد أنْ أوقف السيارة:

- أنت ما زلت تشكين في أمري وهذا شأنك، كما أنك يمكنك التراجع عن ذهابك إلى بيت سلمان إن شئت، وهذا أيضًا شأنك ..

ثم لوَّح لها بسبابته مُحذِّرًا:

- لكنْ عندئذٍ لا تلومي إلا نفسك.

ثم التفتَ إليها والتقتْ عيناه بعينيْها فألفاهما زائغتيْن تحدِّقان للا شيءٍ، فيمَّم مُحياه شطر الطريق، دون أنْ ينطق بحرفٍ واحدٍ، كذلك فعلت هي فأعاد إدارة محرك السيارة، حتى وصلا إلى الطريق غير المُمهَّد،

المؤدي إلى بيت سلمان عندئذٍ ازداد المطر غزارةً، وبدأت السيارة تتخبَّط بعنفٍ فجعلت تسبُّ في قرارة نفسها ساخطةً على سوء قيادته، وفوجئت به يتوقف مرةً أخرى حين تبيَّن وجود سيارةٍ تقف في منتصف الطريق يصعب المرور مِن جوارها فهتف بسخطٍ:

- اللعنة!

عقدت حاجبيها بشدةٍ، وهبط هو مِن السيارة فهتفت:

- ماذا ستفعل يا رجل؟

أجاب بحزمٍ:

- سأزيحها عن الطريق.

ولم تتحرك مِن مكانها، لكنها أخذت تتابعه بصمتٍ وهو يحرِّك السيارة ببساطةٍ حتى أزاحها عن الطريق بكلِّ سهولةٍ ويُسرٍ، وعاد يهرول مِن المطر ففتح باب السيارة واستقلّها، قائلاً بازدراءٍ:

- كم أبغض هذا الشتاء اللعين.

أخذت تحدِّق به برهةً، ثم هتفت بذهولٍ:

- كيف فعلتَ هذا؟

انطلق بالسيارة مرةً أخرى قائلاً:

- لا تبالي بهذا؛ فاللحظات التالية ستحتاج إلى وابلٍ مِن الأسئلة، لذا فسوف أدَّخر كلَّ الأجوبة لِما بعد.

ولم تكرِّر السؤال، فقط عادت تلتفِتُ إلى الطريق، وظلَّتْ تتابعه بترقُّبٍ وقلقٍ وفي عقلها تدور أسئلةٌ عديدةٌ.. مِن أين لهذا الرجل بتلك القوة الخارقة حتى يتمكَّن مِن إزاحة السيارة بكلِّ هذه البساطة؟

لماذا لم يظهر المسخ مرةً أخرى؟ لماذا لم يعترض طريقهما؟

ظلَّت تتساءل، لكنْ بلا جوابٍ.

7-النهاية

أخذ الرائد حسام يتلفَّت حوله يمينًا ويسارًا بتوتُّرٍ بالغٍ وقد تشبَّعتْ ملابسه بالمياه، لكنْ على الرغم مِن هذا، وعلى الرغم مِن البرد القارص، إلا أنه لم يشعر بالبرودة قطّ؛ فخوفه الشديد على رجاله وعلى نفسه جعله ينسى هذا، وينسى أيَّ شيءٍ آخر في حياته، فقط انحصر كلُّ تفكيره فيما هو بصدده، كان يسرع الخُطى وهو يشعر أنَّ نهايته قاب قوسين أو أدنى، وشعر بشيءٍ ما يتحرك مِن بين الأشجار، فامتدَّتْ يده بسرعةٍ إلى مسدسه، وانتزعه مِن غمده بتحفُّزٍ، وهو يقول لنفسه بتوترٍ:

- أمَا لهذه الليلة مِن صباحٍ؟

أخذ يشخص في الأشجار التي تحفُّ جانبي الطريق، لكنه وجد كلَّ شيءٍ هادئًا مِن حوله إلا مِن حفيف الأشجار وصوت المطر المُنهمِر بلا انقطاعٍ، فعاد يقول لنفسه:

- حتى ولو كنتَ الشيطان نفسه يا مَن تتبعني فلن أتراجع قيد أنملةٍ.

وعاد يواصل سيره إلا أنه عاد يراوده ذلك الإحساس بأنَّ هناك مَن يسير إلى جواره خطوةً بخطوةٍ، والتفَتَ بحركةٍ حادَّةٍ إلى الأشجار مرةً أخرى، وكانت الصدمة هذه المرة مرعبةً إلى حدٍّ فاق إمكان الوصف؛ فهناك مِن بين الأشجار رأى زوجًا مِن الأعين طوليتيْن تلتمعان وسط الأشجار والظلام تنظران إليه، تتربَّصان به، وانتفضت كلُّ خلجةٍ مِن خلجات جسده فأمسك مسدسه بكلتا قبضته وصوَّبه إليهما، وما كاد يفعل حتى خبا بريقهما تمامًا، لكنه لم يخفض مسدسه وظلَّ يحدِّق في الأشجار لبعض الوقت والرعب يتنازعه، وعلى الرغم مِن أنه قضى وقتًا قليلاً في هذا الطريق إلا أنه يُخيَّل إليه أنه قضى ما مضى مِن عمره كلِّه فيه، بل راوده إحساسٌ عارمٌ بأنه لن يبرحه إلى الأبد.

وعاد مرةً أخرى يُواصل التقدُّم مُحاوِلاً إيهام نفسه أنَّ هذا مجرَّد وهمٍ، وما كاد يتابع سيره، حتى عادت تلك العينان تبزُغان مرةً أخرى بين الأشجار، ولقد كان

يشعر بهما لكنه لم يلتفت إليهما ثانيةً، ليس لأنه لا يكترث لأمرهما، وإنما مرغمٌ أخاك لا بطلٌ، وظلَّتْ تلك العينان تتابعانه بصمتٍ وهدوءٍ قاتلٍ.

ثم توقف فجأةً والتفت إلى الخلف بسرعةٍ حين تناهى إلى مسامعه صوت سيارةٍ تأتي مِن خلفه..

سيارةٍ يستقلُّها حسناء وكاظم فأشار إليهما بالتوقف، لكنَّ هذا الأخير لم يقلِّل مِن سرعتها، وهو يندفع نحو الرائد حسام بسرعةٍ رهيبةٍ.

******

خفق قلب حسناء بقوةٍ عند ظهور الرائد حسام أمام السيارة، على حين بدا كاظم في قمة الهدوء والنشوة مطلقًا صفيرًا منغمًا لإحدى الأغنيات الكلاسيكية الشهيرة، وهو يقود السيارة دون أنْ يقلِّل مِن سرعتها، ولقد لفَتَ ضوؤها وصوت محرِّكها انتباه ذلك الشخص، فتوقَّف في منتصف الطريق ورفع يديه إلى أعلى، حاملاً بإحداهما مسدسًا مشيرًا لها بالتوقف، وما كادت

حسناء تتبين ملامحه حتى تهللت أساريرها وهتفت بفرحةٍ شديدةٍ:

- الرائد حسام.

لكنَّ كاظم لم يتوقف، ظلَّ ينطلق بالسيارة نحوه بسرعةٍ يطوي الأرض طيًّا، على الرغم مِن سوء الطريق حتى كاد يصطدم به، لولا أنْ قفز الرائد حسام جانبًا مُتفاديًا إياها في اللحظة الأخيرة وخرَّ أرضًا، فالتفتت إليه حسناء بجزعٍ، وهي تصرخ في الرجل:

- ماذا فعلت أيها التعس؟

قال كاظم ببرودٍ يفوق برودة هذا الطقس السيء:

- كان يحمل مسدسًا.

صاح فيه بغضبٍ:

- إنه رائد شرطةٍ.

زمجر قائلاً:

- حتى ولو كان وزير الدفاع نفسه، فلن أتوقف له أبدًا، إذ ربما يكون هو ذلك المسخ متقمصًا صورته، بل ولو كنتُ أعلم أنه أحد رجال الشرطة لطاردته بالسيارة حتى قتلته جراء ما فعلوه بهذا البلد.. ألا ترين ماذا يحدث الآن في مصر بأيديهم؟

هتفت به بغضبٍ:

- وربما لا يكون هو، ثم إنك تتحدث عن مصر كأنك أحد أبطال الحرب، ألم تكن أحد أعزّ أصدقاء سلمان ذلك الحقير أحد أعضاء حزب الشيطان؟

حدجها بنظرةٍ صارمةٍ دون أنْ تنفرج شفتاه، على حين تابعت هي هتافها الغاضب:

- ثم لماذا يحتاج إلى خداعنا بتقمص شخصيته؟ يمكنه قتلنا دون الحاجة لمثل هذه التمثيلية التقليدية الرخيصة.

أشاح بوجهه عنها، مغمغمًا:

- على كلِّ حالٍ لسنا بحاجة إلى وجوده فيما نحن بصدده، وكلُّ لحظةٍ تمرُّ ليست في صالحنا.

آثرت الصمت عن الخوض معه في حديثٍ تعلم جيدًا أنه عقيمٌ لن يجدي شيئًا، وما هي إلا دقائقٌ حتى عبرا الحواجز الحديدية المحيطة ببيت سلمان، التي وضعها رجال الشرطة مسبقًا وهبطا مِن السيارة، فعاد قلبها يخفق بعنفٍ، وهي تنظر إلى البوابة الخارجية للسور المحيط بالمنزل، وما كادا يعبرانها حتى أخذت تستعيد كلَّ مشهد مرَّ بها من أحداثٍ رهيبةٍ في هذا البيت الملعون وهما يسيران داخل حديقة المنزل

مشهد أصدقاء سلمان..

الرؤوس التي حصدها المسخ..

سامية وكامل وعياد..

كلُّ شيءٍ تتذكره إلا القبو الذي زال كلُّ ما يمتُّ له بصلةٍ مِن ذاكرتها تمامًا..

وإلى جوارها كان يسير كاظم الذي تشبَّث بذراعها فجأةً، مُتلفِتًا حوله يمينًا ويسارًا بذعرٍ، متمتمًا:

- إني أرتعد خوفًا.

نظرتْ إليه بازدراءٍ ودهشةٍ، ثم دفعته بعيدًا عنها وهي تصيح به بحنقٍ:

- ماذا حَلَّ بك يا رجل؟ ألا تخجل مِن نفسك أيها التافه حين تحتمي بفتاةٍ؟

لوَّح لها بيده دون تعليقٍ على حين توقَّفت حسناء بغتةً، وظلَّتْ تحدِّق في باب المنزل الذي كان مفتوحًا على مصراعيه تخشى أنْ تَلِجه فتعود سجينةً فيه مرة أخرى، لكنْ وعلى الرغم مِن تلك المشاهد البشعة التي تدور في خلدها، إلَّا أنها قرَّرت أنْ تَلِجَ البيت حتى ولو كان هذا آخر ما ستفعله في حياتها؛ وبخطواتٍ بطيئةٍ ثقيلةٍ جدًا أخذت تدنو مِن الباب، وكاظم مِن خلفها لا يكفُّ عن النظر حوله كالمجنون، متمتمًا:

- هل ستدخلين؟

التفتتْ إليه بحركةٍ حادَّةٍ، قائلةً بهمسٍ غاضبٍ:

- هل تمزح أيها العجوز المأفون، لماذا أحضرتنا إذن؟ أجئتَ بنا لنتنزَّه في حديقة ذلك البيت اللعين؟!

لزم الصمت على الفور فيما بدا لها خوفًا مِنها، وما إنْ أتمَّتْ هي تلك العبارة حتى صارا داخل المنزل، وبمجرد أنْ ابتعدا عن الباب انطلقتْ ضحكةٌ رهيبةٌ عميقةٌ..

ضحكةٌ دوَّى صداها في أديم المنزل كله، وبَدَتْ كأنها تأتي مِن أعمق أعماق الجحيم.

وعلى الفور حاولا التراجُع إلا أنَّ قوةً هائلةً دفعتهما إلى الداخل دفعًا، فخرَّا أرضًا، على حين أُغلق الباب مِن خلفهما بعنفٍ معلنًا فرض السجن الرهيب عليها مرةً أخرى، وحظر تجوالٍ شيطانيٍّ لا يعلم منتهاه إلا الله، وبغضبٍ هادرٍ هتفت حسناء:

- اللعنة.

وتنبَّهتْ لأول مرةٍ إلى هذا المشهد ..

ستةٌ مِن الرجال يتمدَّدون أرضًا فاقدي الوعي، أو إنهم في عداد الموتى لا تعلم في أيِّ وضعٍ هم الآن، تتَّصل أجساد كلِّ ثلاثةٍ مِنهم بخرطومٍ شفافٍ يفصل بين المجموعتين كيانٌ رهيبٌ بشعٌ تعرفه جيدًا..

إنه جثة المسخ.

وأطلقت حسناء شهقةً هائلةً، هاتفةً:

- يا إلهي، ما هذا؟

نهض الرجل بعجالةٍ ثم قال بتوترٍ:

- ليس هناك مزيدٌ مِن الوقت لأية أسئلةٍ.

وجذبها مِن يدها نحو الرجال فاقدي الوعي، متابعًا:

- هيا، خذي مكانك إلى جوار نادر.

جذبت يدها مِن يده بعنفٍ، صارخةً بغضبٍ:

- ماذا تفعل أيها الأحمق، هل جُنِنتَ؟

انقلبتْ سحنة الرجل بشدةٍ، ورسم الغضب خطوطه على وجهه وفي صوته، هاتفًا:

- ستنفِّذين ما آمُرُكِ به.

انقضَّت عليه وأمسكتْ بتلابيبه بقوةٍ، صائحةً:

- أية أوامرَ أيها الحقير، ثم مَن تكون أنت حتى تُملي عليَّ أوامرك؟

لانت ملامحه دفعةً واحدةً، وزفر بقوةٍ، ثم لوَّح بيده قائلاً بحنقٍ:

- إنها أوامرُ لصالح الجميع وأنا أعلم مِنك بكيفية إنهاء الأمر على النحو السليم، مِن أجل والدك، مِن أجل عمك وابنته، مِن أجل مصر.

تركت ملابسه على حين أشار هو إليها بسبابته، قائلاً:

- صدِّقيني، إنَّ هذا هو الحلُّ الوحيد.

واكتسى صوته بالصرامة، مردفًا:

- والأخير.

أطرقتْ برأسها أرضًا وقد تسلَّل اليأس إليها، فلم يَعُدْ أمامها سوى طاعته، فتنهَّدت بعمقٍ ثم قالت ساخطةً:

- وماذا ينبغي عليَّ فعله؟

ربَّتَ على منكبها برفقٍ، مغمغمًا:

- خيرًا تفعلين يا بُنيَّتي.

دفعتْ يده عنها بقسوةٍ، على حين أخرج هو مُدْيَةً كبيرةً مِن معطفه، ناولها لـحسناء قائلاً بجدِّيةٍ:

- ستَجرحين كفَّكِ وكفَّ نادر والرجل المجاور لكِ، وستمسكين بكفَّيْهما كي تمتزج دماؤكم، وسوف أتلو أنا تعويذةً أعدَّها سلمان مسبقًا لمثل هذا اليوم، وعند نهايتها سينتهي كلُّ شيءٍ.

تردَّدتْ لدقيقةٍ كاملةٍ ولم يحاول هو حثَّها على فعل شيءٍ، فلزم الصمت طوال هذه الدقيقة، إلى أنْ التقطت حسناء المُدْية مِن يده ثم انتقلت إلى جوار نادر وجلستْ أرضًا وأخذت تجرح كفَّيْها، أمَّا هو فقد أدار وجهه بعيدًا عنها وقد ارتسم على شفتيه شبح ابتسامةٍ وهو يقول:

- لحظاتٌ وينتهي أمر نادر المسخ إلى الأبد، هذا وعدٌ مِنّي.

كان يقولها بثقةٍ شديدةٍ كأنه على يقينٍ تامٍّ بهذا، فأومأتْ برأسها بلامبالاةٍ، ثم نامت على ظهرها، وأمسكت بيديْ نادر والرجل المجاور لها بعد أنْ جرحتْ كفَّيْهما أيضًا، ووضعت المدية إلى جوارها واختلطت دماؤها بدمائهما، على حين أخرج كاظم ورقةً كبيرةً مِن جيبه، وأخذ يتلو تعويذة سلمان كما يزعم هو، فأغمضت عينيها مُنصِتةً إليه، لكنها لم تفهم شيئًا مِمّا يقول؛ فقد كانت كلماته غامضةً، مُبهمةً، حتى صوته بدا عجيبًا وهو يتلو هذه التعويذة..

بدا عميقًا..

مخيفًا.

ولأنَّ عينيْها كانتا مُغمضتيْن، لم تنتبه إلى تلك الدماء التي بدأت تملأ الخراطيم التي تتصل بالرجال الستة، وتتحرك فيها نحو المسخ..

لم تنتبه إلى وجه هذا المسخ الذي بدأت تدبُّ فيه الحياة، وشرع يفتح عينيه الطوليتين ببطءٍ رهيبٍ، وكلّما توغّل كاظم في تلاوة التعويذة تزداد عينا نادر المسخ انفراجًا واتساعًا.

وفي تلك اللحظات هيمن على عقلها تفكيرٌ عميقٌ إلى أقصى حدٍّ..

كيف عَرَفها كاظم بمجرد رؤيته لها، على الرغم مِن عدم معرفته المسبقة لها؟ كيف أحضر جثة نادر؟

كيف تعرَّف على أفراد عائلتها على الرغم مِن أنهم لم يتعارفوا؟

مَن هم الرجال الستة الذين يرقدون إلى جوارها؟

ثم إنْ كان هذا الذي يتمدَّد إلى جوارها هو جثة المسخ، فماذا يكون المسخ الآخر، فإنْ كان هو هو، فها هو ذا يتمدَّد إلى جوارها جثةً هامدةً فهل هناك آخر؟ وإنْ كان هناك آخر فبكلِّ تأكيدٍ هو يعلم ماذا يفعلون في هذه اللحظات، بدليل أنه قام بسجنهما داخل المنزل، كما أنها سمعت صوت ضحكته بمجرد ولوجهما، لكنه لم يتدخَّل، لم يظهر، فلماذا؟ لماذا؟ لماذا لم يَقْضِ عليهما على الرغم مِن قدرته على هذا خاصةً أنه بالتأكيد يعلم ما يفعلونه في تلك اللحظات؟ أيَّة تعويذةٍ تلك التي يتحدَّث عنها ذلك العجوز، وقد علمتْ حسناء على لسان سامية أنَّ هذا الأمر مجرَّد خدعةٍ مِن تلك المخلوقات لسلمان حتى يُتِمَّ لهم خطة الاستنساخ، إذن فقد تكون هذه أيضًا مجرد خدعةٍ، أو ربما يكون هو مَن يخدعها!

أرادت حسناء أنْ تفتح عينيها لكنهما كانتا ثقيلتين إلى حدٍّ يجعلها تعجز عن فتحهما، كما شعرت بشيءٍ ما يُسلب منها..

إنها روحها ولا ريب..

هكذا تشعر.

قاومت حسناء هذا الشعور بالعجز، ولأنها تمتلك ما تتميَّز به عن غيرها مِن براعةٍ وقوةٍ تُمكِّنها مِن تخطِّي المستحيل، فقد نجحت في الخروج مِن هذا المأزق، ففتحت عينيْها وتركت يد نادر والرجل الآخر ثم اعتدلت جالسةً مُطلِقةً شهقةً هائلةً عاليةً كأنما خرجتْ لتوِّها مِن قاع البحر، ولقد تسارعتْ نبضات قلبها فتوقَّف كاظم عن تلاوة التعويذة والتفتَ إليها بحركةٍ حادةٍ، وتوقَّف سيل الدماء في الخراطيم، وخبا وهج الحياة مِن عيني المسخ مرةً أخرى، وبتهالُكٍ شديدٍ هتفت حسناء:

- مَن أنت؟

وبكلِّ غضب الدنيا زمجر كاظم، ثم طوى الورقة ووضعها في جيبه صارخًا:

- أيتها الحقيرة.

وانقضَّ عليها وحملها مِن عنقها، مُنتزِعًا إياها انتزاعًا حتى إنه رفعها عن الأرض تمامًا، صارخًا بصوتٍ جَهْوَريٍّ رهيبٍ:

- أنا مَن سيجعلك تتمنَّيْن الموت.

ألقى بها إلى الحائط بقوةٍ كأنه يحمل طفلاً صغيرًا، فشعرتْ بعظامها تتهشَّم تهشيمًا، وأطلقت آهة ألمٍ عاليةً، على حين عاد هو يحملها ويطرحها أرضًا مُزمجرًا مرةً أخرى بغضبٍ، ثم أخذ يضربها بقدمه بعنفٍ وجذبها مِن شَعْرها مُجبِرًا إياها على الوقوف، وانطلقت قبضته التي بَدَتْ كمطرقةٍ مِن الفولاذ في معدتها، فانطلقت الدماء مِن فمها، ثم ألقاها بين الرجال فاقدي الوعي، فشعرت بدوارٍ عنيفٍ يكتنف رأسها، وأخذت تتلوّى على الأرض بألمٍ يفوق إمكان الوصف، حتى سكنت حركتها تمامًا، أمّا كاظم فقد عقد يديه خلف ظهره، وهو يقول بلامبالاةٍ:

- الآن سأخبرك مَن أنا.

وطفق يتحرك غدوًا ورواحًا، مُستطردًا:

- أنا أحد رجال الحرس الجمهوري وتابع مِن أتباع سلمان، وكنتُ أنا وهو وبكلِّ فخرٍ نعمل لحساب الموساد الإسرائيلي، بل ونعتنق اليهودية بل ونشرف بأننا مِن اليهود الذين هم أسياد الأرض وورثتها.

وعلى الرغم مِن تهالُكها إلا أنها رسمتْ على شفتيها ابتسامةً ساخرةً مُغمغمةً:

- أيَّة أرضٍ ترثونها أيها الحقير؟ أنتم أحقر الكائنات على وجه البسيطة، أنتم قتلة الأنبياء، أنتم مَن اتَّخذتم العجل إلهًا بعد أنْ جاءكم نبيكم بالبينات، أنتم مَن قلتم لنبيكم «اذهب أنت وربك فقاتلا» وأنتم قاعدون لجبنكم فكتب عليكم التيه في الأرض أربعين سنةً، أنتم إخوان القردة الذين اعتدوا مِنكم في السبت، ألا تقرأ تاريخكم القذر، أنتم لا عهد لكم، أنتم مَن لُعنتم منذ قديم الأزل وإلى آخر الزمان.

ضحك ضحكةً شرسةً ساخرةً، مُصفِّقًا بيديه بحرارةٍ مصطنعةٍ، ثم قال بسخريةٍ:

- رائعٌ! تفقدين ذاكرتك بالكامل وتتذكَّرين تاريخ بني إسرائيل وتحفظينه عن ظهر قلبٍ؟ إنه لشرفٌ عظيمٌ لبني إسرائيل .. لا ينقصك سوى أنْ ينبت على وجهك الأمرد لحيةٌ كثيفةُ الشعر حتى تصيري كداعيةٍ إسلاميٍّ متطرفٍ، لكنَّ ذاكرتك التراكمية تلك التي تحمل كلَّ شيءٍ عنهم لا تتذكَّر أهمَّ شيءٍ في حياتها، لا تَذْكُرين شيئًا سيقلب حياتك بأسرها رأسًا على عقبٍ.

قالت بلهجةٍ فيها مسحةٌ مِن الفضول وهي خفيضة البصر:

- أيُّ شيءٍ أيها الحقير؟

ثم رفعت رأسها فأرسلت بصرها إليه، أمَّا هو فقد جعل يتفحَّصها بعينيه كأنما يسبر أغوارها، فانبسطت على أساريره ابتسامةٌ خبيثةٌ، ثم قال:

- سأخبرك أيتها الحسناء.

لم تكن تعلم أنَّ لسانه سينطلق بحديثٍ كأنه سيلُ العرم في وقعه عليها، إذ أردف قائلاً:

- خذي مِن كاظم تلك الكارثة، إنَّ ذلك اللواء المتقاعد أحمد الشيمي ليس بوالدك.

اتسعت عيناها بذهولٍ لا يخلو مِن حزنٍ، هاتفةً:

- ماذا تقول؟!

ورأته مُنطلِق الوجه ببِشْرٍ وظفرٍ وشماتةٍ بها وهو يجيب:

- نعم، اللواء أحمد الشيمي ليس والدك، هذا الرجل قتل والدك في مَحبسه على الرغم مِن سابق معرفته بأنه مظلومٌ، وحين استيقظ ضميره قرر أنْ يتبنَّاك ليعوِّضك عن جرمه هذا، ما رأيك بتلك المفاجأة السارة؟

تساقطت العَبَرات مِن عينيها ببطءٍ، على حين تابع هو:

- ذلك هو ما انطوت عليه سريرته طوال هذه المدة، أمَّا عنّي أنا، فأنا أعمل في تلك المهمة لحساب أحد رجال القوات المسلَّحة بأوامرَ مباشرةٍ مِن الرئيس، مِن أجل إحضارك إلى هنا لإعادة نادر إلى الحياة، وما دام هذا في صالح إسرائيل فسوف أساعدهم بكلِّ ما أوتيت مِن قوةٍ، فكلُّ مَن هو خائنٌ لكم هو مخلصٌ لإسرائيل، فإنْ يمسسكم سوء شملتنا السراء، هذا هو ما نُكِنُّه لكم.

هنا أرهفت السمع إليه ولا تزال العَبَرات تنحدر وهو يتابع:

- كنتِ تعتقدين أنَّ المسخ قد عاد إلى الحياة، نادر قضى نَحْبَه بالفعل، وما كنتُ سأفعله الآن كان سيعيده إلى الحياة مرةً أخرى، لقد أحضرتُ جثته مِن المستشفى إلى هنا، فقتلتُ لأجل هذا رجليْن، وهؤلاء الرجال الستة الذين يتمدَّدون أرضًا هم مَن كانوا يقومون بحراسة المنزل تمَّ اختيارهم بعنايةٍ فائقةٍ، وفصيلة دمهم كدمك كي نُتِمَّ بهم الأمر.

هتفت بدهشةٍ:

- فما ذلك المسخ الذي كنتُ أراه؟

عقد الرجل ساعديه أمام صدره قائلاً:

- إنه مستنسخٌ آخر مثل نادر لكنْ سينتهي أجله قريبًا، فكلَّ دقيقةٍ تمرُّ يقترب فيها نهايته لذا فقد وجب وجود البديل على الفور مِن خلالك أنتِ، فلا يصلح أيٌّ رَحِمٍ لاستنساخ تلك المخلوقات إلا رَحِمُكِ أنتِ، تلك هي المهمة التي جاؤوا بكِ مِن أجلها إلى هنا منذ البداية وليس كما أخبرتْكِ سامية بأنك مطلوبةٌ للاغتيال مِن قِبَلِ الموساد الإسرائيلي، لكنكِ أجلت كلَّ شيءٍ لبعض الوقت فقط حين قتلتِ نادر، أمَّا ذلك المُستنسخ الآخر فهو حارسك الأمين، ولقد كان حريصًا على حياتك أكثر مِن حرصكِ أنتِ عليها.

وأَحَدَّ بصره فيها متسائلاً ببرودٍ:

- هل تعلمين أنَّ الدكتور صفوت شقيق كامل وعياد، قد أُطلِق سراحه مِن محبسه؟ هل تعلمين أنه كان ينوي الانتقام مِنكِ وقتلكِ شرَّ قتلة؟

ضاقت عيناها متسائلةً:

- وما ذنبي أنا فيما أصابهما، لقد قضى عليهما المسخ.

مطَّ شفتيه قائلاً:

- لأنكِ مَن ذهبتِ بهما إلى حيث لقيا مصرعهما.. أنتِ جئتِ بهما إلى هنا.

ثم رفع يده وفرد راحته متابعًا:

- لكن اطمئنِّي، لقد أدَّى حارسك الأمين دوره على أكمل وجهٍ، لقد قتله هو ومساعده قدري، هذه هي مهمته، أنْ يحافظ على حياتك مِن أجل الحفاظ على بني جنسه مِن الانقراض فأنتِ آخر أملٍ لهم .. هو مَن كان يُخفيك عن أعين رجال الشرطة حين ذهبوا للقبض عليك بأمرٍ مباشرٍ مِن وزير الداخلية الذي يجهل ما نخطط له .. هو مَن كان يُخفيك عن أعين اللجان الشعبية في الشوارع لئلا يتعرَّض لك أحدٌ، بل وأضيف إليك معلومةً جديدةً بأنه قتل ذلك الطبيب الذي يفحص جثث ضحاياه لأنه اكتشف نقطة ضعفه، بل ويساعد

رجال الأمن والبلطجية في قتل المتظاهرين في الشوارع والميادين، هكذا برح الخفاء وأُجلِيت الغشاوة عن عينيك فغدوتِ تعلمين كلَّ شيءٍ.

وأولاها ظهره عاقدًا ساعديه خلفه مكملاً:

- أنتِ أملنا الوحيد في الحفاظ على كياننا في هذه الدولة، دَحْرُ تلك الثورة هو أهم أهدافنا، والوحيد الذي يقدر على هذا هو أنتِ، فسيصبح رَحِمُك مصنعًا لهذه الكائنات.

كفكفت العَبرات المتساقطة ثم قالت بسخريةٍ:

- وهل ستنتظر تلك الانتفاضة حتى تستنسخون شياطينكم وتنمو؟ سوف تطيح بكم وبنظامكم الفاسد في القريب العاجل.

أطلق ضحكةً عاليةً ثم قال:

- الفضل يرجع إليكِ في صمودنا يا حسناء، فلو فشلنا في الوقت الحالي في فضّ تلك المظاهرات، ففي

خلال عامٍ يصبح المسخ مِمّا سيتمُّ استنساخه بجوفِكِ يافعًا يمتلك قوةً لا يردعها رادعٌ فيعيد إلينا أمجادنا.

ومِن خلفه سمع صوتها أكثر سخريةٍ، وهي تقول:

- سنقوم بتسجيل تلك الأحداث بالصوت والصورة ونرسلها إليك لتراها في الجحيم يا رجل، أو سيقصُّها عليك أبناء صهيون مِمّن سيلحقون بكَ هناك.

كلماتٌ جعلت القلق يتسلَّل إليه فالتفت إلى حسناء، وما كاد يفعل حتى أدرك ما تعنيه لكنْ ولسوء حظه تأخَّر كثيرًا، فجحظت عيناه عن آخرهما وهو يصرخ برعبٍ:

- لاااااااا.

فقد أمسكتْ حسناء بتلك المُديَة التي كان قد منحها إياها، وبكلِّ ما تملك مِن قوةٍ طوَّحتْ بها، وكم كانت ضربةً صائبةً وقويةً! فقد اخترق السكين عنقه ومرّق مِن الجانب الآخر، فسقط كاظم على الأرض ونزفت مِن عنقه دماءٌ سوداءُ بشعةٌ، وظلَّتْ أطرافه تنتفض

لبضع لحظاتٍ، ثم سكنتْ حركته تمامًا، وعندئذٍ تحطَّم باب المنزل بغتةً وبرز مِن خلاله شيءٌ آخرُ رهيبٌ بشعٌ يشبه نادر في هيئته المُخيفة .. لقد كان حارسها الأمين كما زعم كاظم، أو بالأحرى المُستنسخ الآخر، وأطلق ذلك المسخ صرخةً هائلةً صمت أذنيه، ثم انقضَّ على حسناء وغرس مخالبه في عنقها، فنهضتْ معه دون مقاومةٍ خوفًا مِن أنْ تغوص مخالبه أكثر مِن ذلك فيها..

نهضتْ معه لكنها لا تخشاه هذه المرة، فهي تعلم علم اليقين أنَّه لا يمثِّل لها أيَّ خطرٍ..

تعلم أنه سيحافظ على حياتها بأيِّ ثمنٍ..

ولم ينتبه المسخ إلى تلك القنينة الصغيرة، التي أخرجتها حسناء مِن جيبها ثم سكبتْ محتوياتها في وجهه، وهي تقول:

- وداعًا يا آخر أفراد العائلة التعسة.

وجحظت عينا المسخ عن آخرهما، وتركها لتهوي أرضًا، حينما أخذتْ محتويات هذه القنينة الصغيرة تلتهم وجهه ورأسه بأكمله، وهو يصرخ ويضرب نفسه بالحوائط والأسقف في مشهدٍ رهيبٍ، ثم سكنت حركته بعد أنْ تآكل رأسُه تمامًا، وعلى عتبة الباب برز الرائد حسام وقد أخذ ينظر إلى هذا المشهد هاتفًا بذهولٍ:

- كيف فعلتِها؟

ابتسمتْ حسناء ابتسامةً شاحبةً، مُغمغِمةً:

- إنه مفعول ماء زمزم المبارك.

عاد يسأل بذهولٍ:

- وكيف علمتِ بتأثيره عليه؟

أجابتْ:

- لقد كان يعيش في بيتي بهيئة طفلٍ رضيعٍ، أصابته قطرتا ماءٍ فالتهمتْا مكانهما التهامًا وعندما ظهر لنا في هيئته الشيطانية، لاحظتُ وجود هذين الجرحيْن في نفس الموضع عند الطفل، عندئذٍ أدركتُ أنهما شخصٌ واحدٌ تمامًا كحال نادر وهذا المسخ.

وأشارتْ إلى جثة المسخ الآخر فالتفتَ إليها، وانعقد حاجباه بشدةٍ وكأنه ينتبه للوهلة الأولى إلى رجال الأمن الستة الذين يتمدَّدون إلى جواره، فهتف بجزعٍ وهو يومئ إليهم:

- هل قُضِي عليهم؟

وأرهف السمع ينتظر جوابها بكلِّ الشغف واللهفة والخوف، لكنه لم يتلقَّ أيَّ جوابٍ منها، ليس لأنها لم تَجِدْ جوابًا أو تتجاهله، لكنها لم تسمع حرفًا واحدًا مِمّا قال، فقد فقدت المسكينة وعيها في تلك اللحظات، وساد صمتٌ رهيبٌ.. مخيفٌ.

******

في قلب ميدان التحرير، كانت حسناء تقف بين المتظاهرين تهتف بكلِّ ما تملك مِن قوةٍ، وعيناها تذرفان الدموع بغزارةٍ، تمسحها لكنها تعود فتتساقط الواحدة تلو الأخرى، كأنما تأبى طاعتها في هذا الأمر، كأنّ الدموع أخذت على نفسها ميثاقًا غليظًا ألَّا تنقطع عن النزول على خدَّيْها في تلك اللحظات العصيبة..

فجأةً وجدتْ أنَّ ذلك الرجل الذي تربَّتْ في أحضانه ليس والدها، بل والكارثة الكبرى أنه هو مَن قتل والدها..

كانت تشعر بهذا منذ فترةٍ وجيزةٍ، لكنها كانت تكذِّب نفسها..

صحيحٌ أنها لم تستردَّ ذاكرتها بأكملها إلا أنَّ ذلك الإحساس قد راودها، لا تعلم كيف جال هذا بفكرها لكنها اعتقدته لسببٍ لا تعلمه، وها قد أصبح ما ظننته حقًا..

تُرى ماذا يَستغْلِق عليها عن ماضيها أيضًا مِن خفايا؟ هل هو خيرٌ؟ هل هو شرٌّ؟

وكأنّ الأرض قد ضاقتْ بها بما رَحُبتْ، فكانت ترتجف مِن فرط البكاء وشعرتْ باختناقٍ شديدٍ فطفقت تلتقط أنفاسها بصعوبةٍ، وزاغت عيناها حتى كادت تخرُّ أرضًا، لولا أنْ لحقت بها رضوى فأحاطت بخصرها، قائلةً بجزعٍ:

- ماذا حلَّ بك يا حسناء؟

استندت على منكبها متمتمةً:

- هيا بنا نغادر الميدان، إني مرهقةٌ للغاية.

عانتا حتى غادرتا الميدان مِن شدَّة الزحام، ولقد لحق بهما والد رضوى واللواء أحمد، فلا يحقُّ لي أنْ أصفه بوالد حسناء بعد أنْ اتَّضح أمره، ولقد لاقوا عناءً أشدَّ حتى وصلوا إلى المنزل بسبب كثرة اللجان الشعبية التي كانت تعترضهم هذه المرة بشدةٍ، خاصةً أنه لم يَعُدْ لديها مَن يُخفيها عن أعينهم، حتى إنها راودها

شيءٌ مِن الندم أنْ قَضَتْ على هذا المسخ الذي لم يكن له أيّة جدوى سوى حمايتها مِن هذا الأمر.

فتحوا الباب فاسترخت حسناء على مقعدٍ وثيرٍ في الردهة، كذلك فعلوا وأعادوا ظهورهم إلى الخلف، وتنهَّدوا بعمقٍ معًا، كأنهم قد عقدوا اتفاقًا مسبقًا على هذا، ثم ولّوا وجوههم نحو حسناء وسألها إبراهيم:

- كيف حالك الآن يا حبيبتي؟

هزَّتْ رأسها مُجيبةً:

- حمدًا لله يا عمي.

وأشارت إلى التلفاز فأسرعت رضوى بفتحه لمتابعة آخر الأخبار، وما كادت تفعل حتى سمعوا ما لم يتخيلوه..

سمعوا الجزء الأخير مِن الخطاب..

خطاب الأمل والنجاة ونهاية الظلم..

خطاب التنحّي.

تخلّيه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلَّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد، واللّٰه الموفق والمستعان.

هذا هو ما سمعوه مِن الخطاب فجعلوا يكبِّرون ويصفِّقون بسعادةٍ بلا حدودٍ، هكذا كان الحال في كلِّ أنحاء البلاد، إلَّا حسناء! وحدها وضعتْ يدها على خدِّها وآثرت الصمت، حتى إنهم جميعًا توقَّفوا عن الهتاف ونظروا إليها بدهشةٍ، وأعينهم تتساءل بتعجُّبٍ عمّا يعنيه هذا، فسألها اللواء أحمد:

- أراكِ غير متفائلةٍ مِن تنحّيه، هل تشعرين بالحزن عليه؟

رسمت على شفتيْها ابتسامةً مريرةً، مُتمتِمةً:

- المشكلة ليست فيه وحده يا أبي، إنه واحدٌ مِن نظامٍ فاسدٍ توغَّل في كلِّ مكانٍ في الدولة.. نظامٍ يستحوذ على السطوة والمال والشرّ.. نظام لن يسمح أنْ ينتهي

كيانه بهذه البساطة.. نظامٍ لن يتركها هكذا بسلامٍ كما تتخيَّلون.. نظامٍ يحتاج إلى سنواتٍ وسنواتٍ حتى تتطهَّر الأرض مِنه.

لم يكن أحدهم يعلم أنها على حقٍّ تمامًا..

لم يكن أحدهم يعلم أنَّ طائفةً مِن هؤلاء الذين قاموا بتلك الثورة سيحذون حذْوَ التي نقضت غزلها مِن بَعْدِ قوةٍ أنكاثًا..

وجعل اللواء أحمد يتفحَّصها لبرهةٍ، ثم عاد يسأل باهتمامٍ:

- لكن، ليس هذا هو سبب تلك الحالة التي تُهَيْمن عليكِ، فماذا هناك؟

وغاصت حسناء في تفكيرٍ عميقٍ إلى أقصى حدٍّ، وجميعهم يتابعونها بصمتٍ وشغفٍ، حتى حسمت أمرها واعتدلت في مجلسها وسألت بصرامةٍ:

- مَن أنت يا سيادة اللواء؟

وارتعدت شفتاه وانهار على أقرب مقعدٍ إليه، على حين حدَّقت بها رضوى ووالدها بذهولٍ دون تعليقٍ، فتابعت حسناء بصرامةٍ أشدَّ:

- أنا التي سأخبرك مَن أنت.

وانهار الرجل تمامًا حين أحسَّ بأنه خسر كلَّ شيءٍ، لكنَّ حسناء طال صمتها كثيرًا، ثم وبدون مقدماتٍ دخلت إلى غرفتها وعادت مسرة تحمل بيدها مسدسًا صوبته إلى رأس اللواء أحمد، فشهقتْ رضوى وجعلتْ يديها على فمها، وجحظتْ عينا والدها عن آخرهما، ولم ينبس ببنت شفةٍ، أمَّا اللواء أحمد فقد التقتْ عيناه بعينيْها وقد التمعتا بالدموع، ليس خوفًا من الموت..

إنّها نظرةٌ عاتبةٌ مِن أبٍ لابنته ..

ظلَّت تحدِّق به لبرهةٍ لكنها لم تُطِقْ صبرًا لهذا، فكانت تزيغ البصر مُتلاشيةً النظر في عينيه، تجنُّبًا للمواجهة..

فقد كان موقفًا صعبًا بكلِّ المقاييس.

وبكلِّ ما حاك في صدرها مِن ألمٍ ومرارةٍ، ألقت المسدس بالحائط ثم هرولتْ إلى الخارج وقد صفقتْ الباب مِن خلفها بعنفٍ، تاركةً إيّاهم مِن خلفها كالموتى لا يتحرَّكون، بل حتى أنفاسهم قد كتموها..

وتحوَّل المشهد في لحظاتٍ إلى لوحةٍ كئيبةٍ ..

بل إلى لوحة مِن أشدِّ اللوحات كآبةً..

******

تمت بحمد الله

العدد المقبل :

سيِّد المقبرة

إنه يقبع بها منذ قديم الأزل ..

وفي داخل أحد السجون المصرية وجدوه ..

خرج من عالمه إلى عالمنا يحمل معه الرعب ..

خرج إلى عالمنا بالموت في كل مكان ..

ويشاء القدر أن تلتقي به حسناء ليحتدم الصراع بينها وبين سيد المقبرة ..

فلمن يكون النصر في النهاية؟

(1)سنمار يقال أنه مهندس بيزنطي نسب له بناء قصر الخورنق في مدينة الحيرة في العراق، وبعد أن انتهى من بنائه صرح لبعض المعجبين بأنه لو تأكد أنه سيتلقى أجره كاملًا لبناه بشكل يجعله يدور مع الشمس أينما دارت فلما علم النعمان بهذا أمر بإلقائه من فوق القصر، وهناك مَن يقول بأنه أخبر الملك النعمان بأن هناك آجرة لو زالت لسقط القصر كله وأنه يستطيع بناء قصر أفضل من الخورنق فما كان من صاحب القصر إلا أن أمر بالقائه من فوق القصر.

(2)هومصطلح صاغه فريدريك مايرز عام 1882 وهو يشير إلى المقدرة على التواصل ونقل المعومات من عقل الإنسان إلى آخر وهو يعد أحد مظاهر الحاسة السادسة أو الإدراك فوق الحسي لكنها ظاهرة لا تزال في موضع الجدل العلمي

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني